سجن صيدنايا

خلال الثورة السورية

(شهادات)

٢٠١٩



تحذير: قد تحتوي بعض الشهادات في هذا الكتاب على تفاصيل تعذيب عنيفة قد تتسبب بصدمة للبعض.



Kamil Ocak Cd., İncili Pınar Mahallesi, 27090

Şehitkamil/Gaziantep

Türkiye

info@admsp.org



سجن صيدنايا

خلال الثورة السورية

(شهادات)

٢٠١٩

رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison

كلمة شكر:

تتقدم رابطة المعتقلين والمفقودين في سجن صيدنايا بالشكر الجزيل لكل من ساعد في إنجاز هذه الوثيقة التاريخية، وتخص الرابطة بالشكر رفاق السجن والاعتقال الناجين وذوي المفقودين والشهداء الذين منحوا الرابطة ثقتهم الغالية بشهاداتهم عن فترة اعتقالهم أو اعتقال ذويهم في سجن صيدنايا والتي تكاملت لتروي قصة المكان الأكثر ظلماً وإجراماً في العالم، والشكر موصول للفنان والمعتقل السابق نجاح البقاعي الذي أغنى الكتاب برسوماته البديعة التي تحكي شواهد أليمة عن السجن الرهيب.

الرسومات المرفقة مع النصوص هي من أعمال الفنان نجاح البقاعي و هو فنان تشكيلي سوري. درس في كلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق وتخرج من المدرسة الإقليمية للفنون الجميلية بمدينة روان الفرنسية، عمل البقاعي مدرساً في الجامعة العربية الخاصة بدمشق.
تم اعتقاله لعدة مرات بسبب مشاركته بالاحتجاجات المناهضة لنظام الحكم في سوريا كان آخرها في العام 2014 حيث أودع في سجن دمشق المركزي (عدرا).
خلال فترة اعتقاله كان شاهداً على ممارسات رجال الامن والاستخبارات السورية بحق المعتقلين داخل مراكز الاحتجاز فقام بتجسيدها بمجموعة من اللوحات نقوم بعرض قسم منها ضمن هذه الشهادات. غادر البقاعي سوريا في العام 2015 وحصل على حق اللجوء السياسي في فرنسا.

مدخل

يقدم هذا الكتاب شهادات معتقلين سابقين في سجن صيدنايا أثناء الثورة السورية، ورواية شقيقة أحدهم عن الزيارة التي قامت بها العائلة إلى السجن لرؤية ابنها، وشهادة زوجة أحد المختفين قسرياً ممن بلغهم خبر غامض عن وجود رجلهم في صيدنايا الذي يعد صندوقاً أسود تقريباً.

يقدّم الشهادة الأولى سجين قديم من الإسلاميين، حُوِّل إلى صيدنايا في أيار 2011، بعد اندلاع الثورة بشهرين تقريباً، يوم كانت السلطة تنهي ملف السجناء السياسيين السابقين، ومعظمهم إسلاميون، وتبدأ بتحويل المتهمين بالانشقاق من العسكريين إلى هذا السجن. ومنذ ذلك الوقت المبكّر بدأت معالم التعامل الوحشي مع المعتقلين على ذمة قضايا الثورة، فقد كانوا يتعرضون للضرب المبرّح بالعصيّ الخشبية والمعدنية على أي مكان من أجسادهم بما فيها رؤوسهم. "لم يكن ذلك ضرباً، بل إعداماً عن طريق الضرب"؛ كما يقول الشاهد الذي يؤكد وقوع ضحايا في كل حفلة تعذيب كانت يد السجانين تُطلق فيها لمعاقبة ضابط من أي رتبة وإذلاله، طالما أنه هنا متهم بخيانة الوطن الذي "أكل من خيره".

خلال أشهر سيفرّغ السجن من نزلائه القدامى الذين كانت الإدارة تتحاشى الصدام معهم على خلفية الاستعصاء الطويل الذي نفذوه في 2008، وسيمتلئ بسجناء الثورة من عسكريين ومدنيين سيزداد عددهم حتى الاكتظاظ المريع خلال السنوات اللاحقة.

اعتقل معظم العسكريين من قطعاتهم بناء على تقارير أمنية تتهمهم بالتخطيط للانشقاق بعد أن وضعتهم السلطات بسرعة في مواجهة المحتجين. إثر التحقيق معهم في فروع المخابرات العسكرية في المدن المختلفة، وأحياناً دون تحقيق، يحوّلون إلى الفروع المركزية لهذا الجهاز في دمشق؛ فرع شؤون الضباط (293)، فرع الأفراد (291)، فرع فلسطين (235)، فرع التحقيق (248) وغيرها. يقضي المعتقلون في هذه الأفرع مدداً متفاوتة يتعرضون فيها للتعذيب بوسائل متعددة أبرزها الدولاب والشبح، وهو تعليق السجين من الكلبشات التي بيديه ورجلاه تكادان تمسان الأرض، لساعات أو يوم أو أكثر. ينتهي التحقيق غالباً باعتراف المتهم بكل ما نسب إليه، وعندها يُحوّل إلى سجن صيدنايا الذي لم تكن سمعة وحشيته المجانية قد انتشرت بعد، مما قد يحمل السجين على الاعتقاد أنه تخلص من عذابه أخيراً.

يُسلَك المحوّلون في "جنزير" واحد، وهو أن تبقى إحدى حلقتي الكلبشة في معصم السجين والحلقة الثانية في الجنزير المعدني الذي يضم الجميع. يصعدون إلى وسيلة الانتقال المعتادة في حالات كهذه، وهي سيارة بصندوق معدني مغلق تدعى "سيارة اللحمة" لأنها تشبه سيارة نقل الذبائح من المسلخ. لا أحد يخبرهم شيئاً عن وجهتهم، فهم مجرّدون من أي حقوق. يقدّر بعضهم الطريق من طوله ومساره فيستنتجون أن الوجهة صيدنايا. وعندها يبدأ من يعرف شيئاً عن رهبة هذا السجن بقصّه على الآخرين الذين يسودهم الرعب وتلهج ألسنتهم بالدعاء المضطرب.

عند الوصول إلى باب المبنى الأحمر (المرسيدس)، وهو الرئيسي والأشد فظاعة من المبنى الأبيض، يُفتح باب الصندوق ويبدأ عناصر الشرطة العسكرية، المسؤولة عن هذا "السجن العسكري الأول" في البلاد، برميهم على الأرض بسرعة، وسط شتائم بالأعراض، وكأنهم عمال يرمون أكياس بصل من شاحنة. ستكون الكدمات التي تحصل نتيجة ذلك التدحرج أسهل ما سيواجهه السجناء الذين سيُقادون إلى بهو كبير حيث سيتلقون ما يسمى حفل "الاستقبال"، وهو جولة تعذيب بدنية قاسية يتعرض لها أي معتقلين منقولين إلى فرع جديد أو مركز احتجاز ضمن المنظومة الأمنية السورية. تزداد شدة "الاستقبال" كلما صعد المرء درجة في سلم أهمية الفرع، أما في صيدنايا فهو الأشد، إذ يروي أحد شهودنا أن خمسة عشر سجيناً قتلوا، من أصل مائة كانوا في "الجنزير" الذي قدم فيه، أثناء "استقبال" صيدنايا الذي يستمر عدة ساعات ويؤمر فيه المعتقلون بالتعري بشكل كامل والسجود ليتلقوا ضرباً مبرّحاً من قبل عدد من العناصر يتنقلون بين هذا الجسد الملقى على الأرض والغارق في دمه وذاك، مختلطاً بدماء قديمة متجمدة، تماماً كأنك تدخل إلى مسلخ.

أثناء ذلك يسلّم السجناء "أماناتهم"، وهي الأغراض الشخصية التي بحوزتهم من وثائق ونقود، وتُسجّل ذاتياتهم التي تتضمن معلوماتهم الشخصية وأضابيرهم، ويبدأون بالتعرف على نظام السجن عبر التعليمات: في الأفرع تُستَخدم "الطماشات" لتغطية العين ومنع المعتقل من رؤية أي من المحققين، أما هنا فالتطميش ذاتي، ويكون بأن يطمِّش المرء نفسه برفع كنزته من طرفها الأسفل في الخلف الذي يُقلَب ليغطي الرأس، وبعد ذلك يضع يديه على عينيه، لا من طرف الأصابع بل من راحة الكف، كي لا تكون هناك فرصة لأن يرى أحداً. ومن يفتح عينيه سيُعاقَب باقتلاعهما.

أثناء تسجيل المعلومات الشخصية يتعرّض السجناء لأنواع الإهانة والتمييز. يروي أحد شهودنا أنه كان يجب على السجين ذكر اسم أمه حين يسأله من يدوّن الذاتية عن "اسم الشرموطة؟". كما يحكي عن الاستقبال "الخاص" للأطباء والمهندسين والمحامين والضباط والصحفيين، إذ يتعرضون لتعذيب متفنّن نتيجة ما يشعره السجانون من عقد؛ فهم طائفيون، مناطقيون، حاقدون طبقياً، غير متعلمين، صغار تتراوح أعمارهم بين 18 و20 عاماً، وتظهر آثار كل ذلك في تعاملهم مع السجناء من حملة الشهادات العلمية أو الموقع الاجتماعي المرموق أو الميسورين مادياً أو الأكبر سناً... حتى صاحب الجسد الرياضي كان يثير غيظهم فيسعون إلى "كسر رأسه"!

عند انتهاء "الاستقبال" يتعلم السجناء درس "القطار" الذي سينفذونه دوماً عند تنقلهم كمجموعات هنا. وهو أن يمسك كل منهم بيديه خصر من أمامه وينحني ويضع جبينه على مؤخرة هذا السجين، وبهذه الطريقة كان من المستحيل أن يرى أحداً.

بعد أن يسحب السجانون الجثث من حصيلة "الاستقبال" يصيحون: "واقفاً واقفاً... قطار قطار قطار"، ثم يوجّهون أول واحد في "القطار" فينزل درجاً إلى الزنزانات التي يودع فيها القادمون الجدد لمدة تتراوح بين أسبوعين وستة أشهر.

تختلف مساحة الزنازين، التي كانت في الأصل "منفردات"، لكنها على الدوام مكتظة بعدد غير معقول. يروي أحد شهودنا أنهم كانوا 28 شخصاً في زنزانة بطول لا يتجاوز أربعة أمتار وعرض ثلاثة، بما فيها حفرة المرحاض، ويروي آخر أنهم كانوا تسعة في ثانية مساحتها مترين في مترين.

لن يدخل السجناء الزنازين دون حفلة ضرب جديدة وتلقي التعليمات: هنا كل شيء بأمر... تأكل بأمر وتشرب بأمر

وتنام بأمر وتستيقظ بأمر. أي تصرّف من عندك ستكون عقوبته شديدة. الكلام ممنوع والهمس ممنوع. عندما تسمعون حركة في الممر يجب أن تأخذوا فوراً الوضعية "جاثياً" داخل الزنزانة. أما عندما يُفتَح بابها فيجب أن يكون الجميع قد صاروا بهذه الوضعية داخل المرحاض، لا واقفين هناك. من اليوم فصاعداً أنتم "ولاد شرموطة". وهنا يسأل كل زنزانة وكان على الموجودين فيها أن يجيبوا "نحن ولاد شرموطة". لم يخرج هذا الجواب قوياً ومتحمساً كما اللازم من إحدى الزنزانات، فعوقبوا بشدة على ما رآه السجان تراخياً!

في اليوم التالي، وربما بعده بيوم أو اثنين، سيتلقى السجناء وجبتهم الأولى. يُجمِع من أخذنا شهادتهم أن النقص الفادح للطعام كان أقسى ما واجهوه في هذا السجن، أسوأ حتى من الضرب الذي ربما يؤدي إلى الموت بسهولة. إذ كثيراً ما كان متوسط حصة الواحد نصف زيتونة ومقدار ملعقتين من الرز ونصف رغيف خبز خلال الأربع وعشرين ساعة.

السجّان مطلق اليد، يستطيع إخراج من شاء من الزنزانة وتعذيبه لأي سبب، أو ليتسلى فقط، كما قد يأمر السجناء بمد أياديهم أو رؤوسهم أو أرجلهم من الطاقة الموجودة أسفل الباب "الشرّاقة" ويضربهم عليها أو يهرسها ببوطه، وقد يعاقب زنزانة بإغراق أرضيتها بالماء في جو صيدنايا الشهير ببرودته. قد يستمر ذلك لأيام، وربما يكون السجناء عراة تماماً. ولا تُرفع هذه العقوبة، في الغالب، إلا بعد وفاة واحد من نزلائها.

بعد قضاء مدة الزنازين، التي يدخل في تحديدها مزاج السجانين وتقديرات غامضة من الإدارة، يُقاد المعتقلون إلى الأعلى ويودعون في المهاجع التي يُفترض أن الحياة فيها أقل سوءاً لكن هذا ليس قاعدة.

مهاجع المبنى الأحمر في صيدنايا ذات مقاسات موحدة، بطول سبعة أمتار وعرض خمسة، وفي زاويتها حمام. بلغ متوسط عدد نزلاء المهجع أثناء الثورة حوالي 35 سجيناً. لا شيء في المهجع سوى بطانيتين أو ثلاثاً لكل سجين. يتلقى الصاعدون من الزنازين التعليمات مجدداً: "بتقعدوا هون وأكلكن بيوصل لعندكن. صوت ما في وهمس ما في". ثم يتعلمون الوضعية التي يجب أن يتخذوها بسرعة عند دخول السجانين أو فتح الطاقة "الشرّاقة" التي في الباب؛ وهي الوضعية "جاثياً" على ركبهم، أي بين الوقوف والجلوس، وجوههم إلى الجدار المقابل للباب وأيديهم خلف ظهورهم أو تغطي أعينهم، وبصفوف متتالية حسب عددهم.

يجري اختيار رئيس للمهجع من بين النزلاء، كيفياً أو حسب رغبته، وهو سيكون الصلة بين السجناء والسجانين. "رئيس المهجع شخص ميت" كما أخبرنا عدد من الشهود، لأنه دوماً أمام احتمال تلقي الضرب المبرّح لأوهى حجة أو حتى دون سبب. فكثيراً ما كان السجان يدخل إلى الجناح ويصيح من باب الممر: "عرصات المهاجع" أو "خنازير المهاجع"... "الكل يشلح بالشورت" ويضربهم ويخرج.

كانت أمور السرعة والتعداد شديدة الأهمية للسجانين، ودائماً تحت طائلة الضرب المؤذي. عندما يُحضرون الطعام كان السجان يعدّ حتى ثلاثة، وخلال ذلك على الشاويش أن يُخرج "القصعات" الفارغة من الوجبة السابقة ويُدخل الجديدة. بعد أن ينهي السجان العدّ سيغلق الباب الموارب على كل حال، سواء أغلق بشكل طبيعي أم أثناء حركة الشاويش الذي قد يُكسر أحد أعضائه بهذه الحركة وقد يموت فوراً. ولذلك لم يكن يتطوع للقيام بهذه المهمة إلا "فدائي" من المعتقلين على ذمة الثورة، أو "شبّيح" لم يعرف أن هذه الوظيفة هنا لا تمنح الحظوة والتنمر كما في الأفرع.

من النموذج الأول يُذكر الملازم أول رنس المصلح، وقد تبرّع أن يكون رئيس مهجع بدلاً عن شخص مريض اختاره

السجان عشوائياً. وتلقى التعذيب والضرب دون أن يبلّغ عما يريده السجانون من أسماء "المعاقبين" مخالفي الأنظمة في الجناح.

ومن النموذج الثاني يذكر شاهد آخر مطرباً شعبياً اسمه شادي سعيد، كان قد أعرب عن ولائه منذ الزنزانة بموال يحيّي فيه بشار الأسد. وعند الصعود إلى المهاجع روى للمعتقلين قصة اعتقاله بسبب تورطه في استدراج مساعد في المخابرات لصالح إحدى مجموعات الجيش الحر، بعد أن أغرته بمبلغ كبير.

يدخل السجانون ليضربوا السجناء متى رغبوا. "في بعض الأيام كانوا يدخلون أربع مرات لضربنا" كما يقول أحد الشهود، فيما تحدث آخرون عن جولة تعذيب كل يومين أو ثلاثة. يستخدمون كل الوسائل المتاحة بين أيديهم: "قشاط الدبابة"، وهو السير الجلدي الذي يلتف على محرّك الدبابة، وهو يسلخ الجلد كلياً؛ وكبل التمديدات الكهربائية النحاسية المجدول مرتين والمعروف باسم "الكبل" الرباعي"؛ وأنبوب التمديدات الصحية الأخضر الذي يسمّونه "الأخضر الإبراهيمي"، في سخرية من أحد المبعوثين الدوليين لحل القضية السورية؛ و"الهروانة" التي هي أنبوب مصمت من السيليكون المضغوط الذي يستعمل للحم البلاستيك في الأصل، وهي لا تجرح ولا تكسر عظماً، لكنها إما أن تميت الشخص مباشرة أو تسبب له ألماً غير عادي؛ وبورية الحديد التي كان السجانون يطلقون عليها اسم "أم كامل"، وكانت قاتلة بضربتين أو ثلاثاً؛ والعصا الكهربائية؛ والدعس بالبوط العسكري.

فضلاً عن الضرب المزاجي والعقوبات العشوائية كان السجناء يتعرضون لما يسمّى في صيدنايا "دولاب السجن"، وهو جولة تعذيب ليلية شاملة تبدأ من أول مهجع في الطابق الأول وحتى آخر مهجع في الطابق الثالث. عن هذا الدولاب قال الشهود إنه لم يمض دون أن يخلّف جثة واحدة في كل مهجع على الأقل، ورغم ذلك كان السجناء المصطفون بالوضعية جاثياً يستعجلون وصول جوقة التعذيب إليهم ليتخلصوا من الرعب الذي يصيبهم من سماع الأصوات التي تشبه صياح أشباح وسط مدينة خاوية على حد وصف أحدهم.

تختلف منهجية التعذيب في صيدنايا عما يجري في أفرع المخابرات. فهناك يهدف التعذيب، في الغالب، إلى الحصول على المعلومات، وقد يحدث أحياناً بقصد الإذلال والتشفي، أما هنا فلا يهدف التعذيب إلى غير ذاته. "صيدنايا مكان خُصِّص لمعاقبة الثورة السورية"، كما عبّر شاهد آخر قال إن الفارق الثاني هو أن المحقق في الأفرع يستمر في الضرب حتى يحصل على ما يريد من معلومات أو اعترافات، أما إن كان الضرب عقوبة فإنه يستمر حتى يصرخ السجين الذي يُعدّ امتناعه عن ذلك تحدياً. أما في صيدنايا فعلى العكس، يُفترض أن تتلقى الضرب وأنت صامت، وكلما صرخت زادت عقوبتك.

في وقت ما يؤخذ السجين إلى مقر الشرطة العسكرية بحيّ القابون ليُعرض على "المحكمة الميدانية" في جلسة لا تتجاوز دقيقتين أو ثلاثاً يسأل القاضي فيها المتهم عما نُسب إليه ثم يطرده ويصدر الحكم الذي يبقى مجهولاً بالنسبة للسجين الذي لا يناله من هذه "المهمة"، كما تسمّى لدى السجانين، سوى الضرب ذهاباً وإياباً وقضاء ليلة سيئة في سجن الشرطة العسكرية الذي يتكوم فيه الموقوفون فوق بعضهم ويتناقلون الجرب والقمل ليعودوا بهما إلى مهجعهم ويصيبوا الآخرين فيه بالعدوى إن لم تكن قد تفشت من قبل.

من الناحية النظرية، يحق للسجين تلقي الزيارات بعد عرضه على المحكمة، بعد أن يكون قد قضى المدة السابقة في عداد المخفيين قسرياً. أما عملياً فكان بعض الأهالي يستطيعون "تأمين" زيارة خاصة بدفع رشاوى أو بالاستعانة ببعض ذوي النفوذ. وحتى الحصول على الموافقة على الزيارة العادية، كل ثلاثة أو أربعة أشهر، لم يكن يمر دون تعقيدات ومتابعات طويلة ودفع نقود.

يُخصَّص للزيارات يومان في الأسبوع، وتجري الأمور فيهما على شكل كرر سجناء متعددون وصفه. في الصباح يذيع السجانون أسماء من وردتهم زيارة فيستعد السجين للخروج من المهجع. يضربونه حتى يسيل منه الدم، وسط عبارات من نوع: "امشي يا ابن الكذا... يا ابن الكذا... بدك تاخد الرضا من تبع أمك؟! جاية مرتك تزورك؟ بتكون امبارحة كانت نايمة مع أخوك". يجرّونه إلى غرفة كبيرة بطول 15 متراً وعرض 10 أمتار، يُجمع فيها من وردت أسماؤهم للزيارة من كافة الأجنحة. في الغرفة حلاق يمسك بماكينة لإزالة شعور المعتقلين وضربهم. يخرج السجين إلى الزيارة برفقة سجان واحد على الأقل. يقف بمواجهة شبك بينما يقف أهله وراء شبك آخر ومعهم عسكري آخر، وبين الشبكين يسير رقيب ليستمع إلى الحديث. قبل الزيارة يجري تنبيه السجناء إلى الكلام المسموح، وهو: "كيفكم؟ كيف صحتكم؟ أنا بخير. أموري تمام" وأشياء من هذا القبيل. يمنع أن يذكر أسماء لئلا تحمل رسائل! فيمنع مثلاً أن يقول: كيف حال أخي محمد؟! عليه أن يسأل بالمجمل: كيف إخوتي؟ كيف عماتي؟ كيف أخوالي؟ يعامل السجانون المعتقل أمام ذويه برفق محدود، ويكونون قد حذروه من أي مخالفة قبلاً: "مرجوعك لعندي وحسابك بعدين" في أفضل الأحوال، أما غالباً فكانوا يقولون: "ليكها أمك برّة... بعمل فيها كذا وكذا عالشبك". يحصل هذا الحساب سواء خالف السجين التعليمات أم فعل ذلك أحد من ذويه بكلمة نزقة. أما إن مرت الأمور بسلام، خلال الدقائق الثلاث المخصصة للزيارة، فإن السجان يخرج به، وبينما يودّعه أهله بأنظارهم يهمس في أذنه: "شد ظهرك... اعتز بنفسك"، وبمجرد أن يتجاوز المسافة الفاصلة يشوطه بقدمه فيقذفه أمتاراً إلى الأمام، عليه بعدها أن يخر ساجداً وينتظر كيس الملابس الذي أحضره الزائرون إذ سيُرمى على رأسه. ثم يأمره السجان: "واقفاً"، وهنا عليه أن ينهض ويفهم أن المقصود "راكعاً" طالما أنه عاد إلى حياته "الطبيعية". في الغالب يحضر الأهالي كمية كبيرة من الملابس، وفي الغالب يصل منها إلى السجين أقل القليل، وخاصة ملابسه المستعملة من قبل، أما الثياب الجديد فيسرقها السجانون في أكثر الأحيان.

مرات كثيرة لا يتعرّف الأهل على ابنهم إلا بعد أن يناديه السجانون، بسبب التراجع المريع في وزنه وصحته وما تعرض له من تعذيب، وقد لا يتعرّف الرجل على أطفاله الصغار بسبب نموهم.

ورغم فرحته بلقاء أهله كان الكثير من سجناء صيدنايا يتبادلون التهاني إن لم يُذَع اسمهم يوم الزيارة، ويوصون من يأملون بخروجه أن يبلغ الأهل أن لا يكرروها لما يصاحبها من إهانات وتعذيب كثيراً ما كانت نتيجته الموت، كما في حالة القاضي نايف فيصل الرفاعي الذي قتل عقب تلقي زيارة من زوجته.

كان القاضي عسكرياً برتبة نقيب، اعتقل في آذار 2012 بعد استدعائه إلى أحد الفروع الأمنية للتحقيق معه في ما نسب إليه من التعاون مع الثوار وتسريب وثائق سرية عن أحكام بالإعدام أصدرها القاضي محمد كنجو حسن، رئيس المحكمة الميدانية. في السجن تعرض الرفاعي لتعذيب مضاعف وضرب بأشد الأدوات فتكاً. أمره السجانون بالتعري بشكل مستمر وكانوا يصبون عليه الماء البارد. تعمدوا إذلاله بشكل يومي. وعندما عاد من الزيارة الأخيرة ضربه مجند يدعى عيسى محمد، يقول السجناء إنه وحده قتل المئات منهم، ببورية معدنية على بطنه أدت إلى نزيف داخلي أودى بحياته في نيسان 2014. وحين بدأت عائلته بتجهيز مراسم العزاء منعوها.

يعود السجين إلى المهجع محاولاً تأويل كل كلمة سمعها من ذويه بشكل يفيد الخروج من السجن وسقوط النظام. فقد كان المعتقلون معزولين عن العالم الخارجي تماماً، وكانوا يستغلون الزيارة نفسها، واختلاط نزلاء المهاجع المختلفة في غرفة الانتظار لساعات، لتلمس أي خبر عن الخارج أو عن أحوال السجن نفسه.

كانت تتاح فرص نادرة لتهريب رسائل صغيرة جداً ضمن الملابس، إن لم تقع في يد السجانين أو يختلسوا هذه القطعة، لكن الأهالي في الخارج لم يكونوا يملكون من المعلومات واليقين ما يقولونه للسجناء.
في بعض الحالات كان المعتقلون يستنتجون شيئاً مما يجري ميدانياً في الخارج من ردة فعل السجانين وتوترهم وافتعالهم أي سبب لإنزال العقوبات. فإن صوحب ذلك بانقطاع الكهرباء أو الماء عنى ذلك أن المعارك اقتربت من السجن، وربما يسقط في يد قوات الثورة فيتحرر السجناء الذين كانوا، في تلك الأوقات، يتلقون الضرب المضاعف بينما يخالجهم الشعور بالانتصار.
يروي شاهد أن المعاملة اختلفت تماماً قبيل مؤتمر جنيف2، في كانون الثاني 2014، تراجع الضرب حتى انعدم تقريباً، شُغّلت التدفئة ومرّ مدير السجن في جولة، وبعدها مرّ الطبيب على كل المهاجع ليقدّر درجة تفشي الجرب، ووزع السجانون الدواء. استمر الوضع هكذا حتى فشلت المحادثات فعادت الأمور أسوأ من ذي قبل.
في أيار 2013 تمكنت إحدى فصائل الجيش الحر من اغتيال مدير السجن، العميد طلعت محفوض، مما كان له انعكاس على السجناء الذين أخذ وضعهم يتدهور. يروي الشهود أن الكارثة الحقيقية بدأت في هذا العام والسنوات التي تلته، إذ زاد التعذيب وتكررت العقوبات وصارت الدماء على الجدران وبدأت التصفيات وانتشرت الأمراض وصار الناس يموتون بعد أن تراجعت مناعة أجسادهم وصارت المياه تنقطع، أحياناً لسبعة أو ثمانية أيام متوالية، وبدأ الطعام يقل، وصار السجانون يسكبونه على السجناء أو يفرغونه على بلاط المهجع ويدوسونه، وأحياناً يرمونه في المرحاض، وصار طبيعياً أن يفتح السجان باب الجناح صباحاً ويسأل: "مين عنده فطيسة ولا؟" فيرد رؤساء المهاجع: "واحد... اثنان".
صاروا يحرمون بعض المهاجع من الطعام كنوع من العقوبة أو كيفياً أو ليوفروا على أنفسهم عناء التوزيع. وربما أعطوا كل حصة الجناح، المكون من تسعة مهاجع، لمهجع واحد وحرموا الآخرين. على كل حال كان الطعام المخصص للجناح يكفي مهجعاً واحداً، وكانت حصة الفرد من وجبات اليوم كله لا تشبع طفلاً صغيراً.
كان الحرمان من الطعام أمراً سهلاً ولأوهى الأسباب. عندما يحرمون مهجعاً من الطعام كانوا يحضرون حصته في الجاطات، يضعونها على بابه دون أن يعرف نزلاؤه إن كانوا سيدخلونها اليوم أم سيحملونها ويعطونها للمهاجع الأخرى. وهكذا كانوا يسمعون حصتهم تستقر وراء الباب لبرهة، ثم يشعرون أن الآخرين يأكلونها.
يقول أحد الشهود: "بعد مدة من وجودنا نسينا العالم الخارجي، نسينا أهالينا، نسينا لماذا نحن هنا، بل وتأقلمنا مع الضرب. صار الأمر الوحيد الذي يشغل بالنا هو متى سيأتي الطعام".
صار السجناء شديدي النحافة، خدودهم غائرة وقفصهم الصدري بارزاً، لا يتجاوز وزن أسمنهم 50 كغ. وتحول كثير منهم إلى ما يشبه الذئاب التي يحاول أحدها الاستيلاء على حصة سواه كي يبقى على قيد الحياة، فقد تمضي أربعة أو خمسة أيام دون أن يحضروا شيئاً، ثم تصل وجبة تكون حصة الواحد منها ربع رغيف أو نصفه. اعتادوا تناول أوراق البرتقال وقشر البيض وعجو الزيتون ولم يعد ينتج عن الوجبة أي فضلات.
صار عدد الذين يموتون من الجوع أكبر من عدد من يقضون تحت الضرب. واندلعت الخلافات حول أدنى تفصيل من حصة الطعام. يروي شاهد من مهجع العزل الخاص بمرض السل أن اثنين من السجناء اختلفا على اختيار بيضة بناء على لون قشرتها، الأبيض أو الأحمر، وعلا صوتاهما فسمعهما السجانون وقرروا معاقبة المهجع وتوفقوا عن تقديم الطعام له خمسة أيام توفي خلالها البعض ومنهم أحد طرفي النزاع نفسه.

كان السجانون يحددون طريقة التعامل مع السائل الذي يأتي مع الوجبة، كالشاي والشوربة، حسب سخونته، فإن كان بارداً سكبوه على الأرض ليصنع السجناء من أياديهم ما يشبه المغرفة التي يجمعون فيها ما يستطيعون منه ويشربونه مع ما اختلط به من شعر وقاذورات، وأحياناً لا يصبرون فيضعون أفواههم على الأرض ويشفطونه. وإن كان السائل حاراً يدلقونه على رؤوس السجناء وهم في الوضعية جاثياً، فكانت بقايا أوراق الشاي تلتصق برأس من هو أمامك أو بكتف الذي بجانبك، ومن هناك كان عليك أن تأكلها.

تحول الطعام إلى حلم يراود السجناء في ليلهم ويتغزلون به في نهاراتهم، فصاروا يتجمعون، ثلاثة أو أربعة، فيتهامسون بطريقة طبخ الرز، أو البامية، أو الشاكرية، وأحياناً الحلويات، ويتلمظونها، وفي الليل يقسم بعضهم أنه أحس بطعمتها في فمه! صار السجناء من الساحل يحدثون أبناء المدن الداخلية عن طرق الصيد وأنواع السمك. اندلعت الجدالات في تفضيل طبخ كل منطقة على الأخرى. قد تعلو الأصوات ويشتد السجال، لكن تلك اللحظات كانت من أسعد أوقات السجناء لأنهم يعيشونها مع حديث الطعام.

بشكل متواز، نشأت في المهاجع تجارة تقوم على عملة هي "الخبز"، فمثلاً قد يبيع أحدهم حصته من المربى، وهو مقدار ملعقة تصل في الأوقات السعيدة، برغيف، وقد يشتري آخر، يمارس الرياضة قدر الإمكان، حصة آخرين من البيض كي يستطيع تناول بيضة كاملة في أحد الأيام، وقد يشتري أحد السجناء من آخر، وصلته زيارة، كنزة ليستر بها جسده أو يتقي البرد، مقابل ثلاثة أو أربعة أرغفة تُسدّد بمعدل ربع رغيف يومياً...

تطور الأمر في بعض المهاجع إلى درجة تكليف أحد التجار السابقين بتحديد "الأسعار" حسب حال "السوق". وتدخل الشاويش لحسم بعض القضايا؛ مثل توحيد الأسعار داخل المهجع وضبط المنافسة ومنع التداول مع بعض الأشخاص الذين عجزوا عن إدارة مواردهم بحكمة فوقعوا في العجز. ونمت التجارة إلى البيع المركّب لنوع من "طبخة" يجترحها المرء، كخلط البيض وقطع الخبز باللبن المروّب بالماء.

كانت المياه تنقطع لأيام أحياناً بسبب أذية أصابت خط التمديدات الواصل إلى السجن، أو كعقوبة من الإدارة والسجانين. وحين كانت تشحّ صار كأس الماء يباع برغيفين من الخبز.

تتفوق عبثية أوامر السجانين على نفسها كل مرة، ما داموا مطلقي اليد بشكل كامل. يروي أحد الشهود أن طريقة الحلاقة كانت بأن يرموا إلى داخل المهجع بعدة ماكينات موصولة بشريط واحد ليستعملها السجناء. وفي أحد الأيام صدر الأمر: "الكل يحلق" ولم تصل الماكينات. أبلغ رؤساء المهاجع السجانين بهذا فأتاهم الأمر مجدداً: "دبروا حالكن"! اعتبر البعض أن هذا مجرد كلام لأن الطلب غير منطقي. في اليوم التالي جاؤوا، ولما رأوا أن أمرهم لم ينفذ أخرجوا رؤساء المهاجع وعاقبوهم حتى قتل منهم اثنان أو ثلاثة. ثم كرروا الأمر: "بكرة بتكون كل العالم حالقة". كان التهديد جاداً إذاً!! أخذ المعتقلون ينسلون الخيوط من البطانيات ومن ليفة الجلي وينتفون شعورهم. حتى في هذا عليك أن تكون حذراً، فالبطانية أهم من السجين بكثير في صيدنايا، كما يقول شاهد آخر.

يصعب الاستحمام بالماء البارد في المهجع، ولذلك يتم إخراج السجناء أحياناً إلى الحمامات الواقعة في آخر الجناح. يُدخلون كل سبعة أو ثمانية سجناء إلى إحدى غرف الحمام سوياً ويفتحون عليهم ماء مغلياً أو فاتراً. في طريق الذهاب والعودة لا يتوقف الضرب بينما ينزلق المعتقلون ويتساقطون بسبب ضعف أجسادهم والمياه على الأرض. يروي شاهد قضى في سجن صيدنايا سنتين أنه ذهب إلى الحمام مرتين، كانت إحداهما طويلة فاستمرت لثلاث دقائق أو أربع تحت الدوش! أما آخر فقال إن المدة التي كانت مقررة للحمام في جناحه هي عشر ثوان تقريباً، يحددها تعداد السجان: "واحد... اثنين... ثلاثة... أربعة... يلا يا عرصة! خمسة... ستة... سبعة... ثمانية... يلا يا

عرصة!!... تسعة... عشرة!!". عندما يلفظ الرقم الأخير على السجناء أن يكونوا جميعاً في الخارج، وقد أخذوا وضعية "القطار".

كان لنقص النظافة، بالإضافة إلى شح التغذية وتكرار الضرب، دور كبير في الانتشار المريع لأمراض الجرب والسل وسواهما، مما أودى بحياة الكثيرين.

يختلف أداء الأطباء المكلفين في سجن صيدنايا، بحسب الشهود الذين اتفقوا على أنهم لم يروا طبيباً يعالج مريضاً أو يعاينه. قد يضربه في بعض الأحيان، كما في حالة الضابط رنس المصلح المشار إليه أعلاه، وقد يتطور هذا الضرب إلى القتل، كما في حال الطبيب الذي سمّاه السجناء "الجزار". أما الطبيب الجيد فهو من يكتفي بمراقبة أجساد السجناء وحركتهم، ليحدد من يعجز أو يتباطأ فيمنحه رقماً ويحوله إلى "مشفى تشرين العسكري" الذي يتبع له السجن من الناحية الطبية.

هناك سيستنتج المرضى أنهم لن يدخلوا المشفى في الحقيقة، بل سيوضعون في زنزانة خاصة خارج مبناه حيث ربما أعطاهم أحد عساكر المشفى أدوية عامة، دون معاينة، وصرفهم عائدين، أو يُدخَلوا إلى المبنى لإجراء الفحوصات وقد يتعرضون للضرب من الطاقم، فضلاً عن الضرب في طريقي الذهاب والعودة بالسيارة المغلقة (براد اللحمة) ذاتها. أخبرنا أحد الشهود: "كنا حوالي 30 محالاً إلى المشفى، وعندما وصلنا إليه كان أربعة منا قد توفوا. في اليوم التالي أخذوني لوضع جثث من قضوا في أكياس. كانوا أكثر من 15 قتلوا على يد الشبيحة والأطباء".

ينقل شاهد آخر رواية فظيعة عما يجري في زنزانة المشفى التي يفصل بينها وبين بابه طريق طوله حوالي 200 متر، مفروش ببحص أبيض كبير. ولأن السجناء حفاة ومرضى وضعيفون جداً سيقع بعضهم ويعجز عن المشي فيضطر العساكر إلى شحطه أو سنده. وتوفيراً لهذا "العناء" كان المساعد المسؤول يعيّن للزنزانة شاويشاً من السجناء، ثم يأمر المرضى بأداء بعض الحركات، فمن توقع أنه سيعجز عن المشي يشير إلى الشاويش بشحطه جانباً وتصفيته باستخدام لفحة قماشية وعصا موضوعتين لخنق المريض. بهذه الطريقة كان أحد السجناء يقتل أربعة أو خمسة من زملائه مقابل أن يأكل طعاماً بكمية وفيرة يُقدّم هنا.

لا شيء أسهل في سجن صيدنايا من القتل أو الموت؛ بالإعدام الميداني الذي كان يطال عدداً يتراوح بين الخمسين والثلاثمائة، مرتين في الأسبوع، بحسب تقدير أحد الشهود، أو بالإعدام بطريقة غير مباشرة؛ كأن يضربوا المعتقل ضربات قاتلة على مناطق حساسة كالنخاع الشوكي أو الرأس أو المعدة، فضلاً عن الموت بسبب المرض أو الجوع أو التعذيب.

ربما يأتي السجان في الصباح فيسأل: "شبه هادا ولاك عرصة؟"، فيجيبه رئيس المهجع: "مات". فيعاود السجان السؤال: "مات وإلا فطس؟" فيجيب: "فطس". قال: "لا تكونوا أنتو قتلتوه ولاك؟" فيجاب رئيس المهجع: "لأ سيدي، مات لحاله". يسأل السجان: "شو اسمه ابن الشرموطة؟"، ثم يقول: "طيب ماشي... حطه ببطانية وزتّه برّه". يتولى ذلك اثنان من السجناء، عليهما أن يخرجا الجثة خلال خمس ثوانٍ يرافقها التعداد الصادر من السجان، فإن لم يكفِ الوقت سيتعرضان لضرب وحشي.

في مواجهة كل هذا لم يكن أمام السجناء سوى اللجوء إلا الله، سواء كانوا متدينين في السابق أم لا. ورغم أن الصلاة ممنوعة نهائياً تحت طائلة العقوبة الشديدة، إلا أن معظم الشهود الذين التقيناهم قالوا إنهم كانوا يصلّون بوسائل متحايلة، كالصلاة بالعيون أو جلوساً، فإن أتيحت لهم فرصة الصلاة بشكل عادي، بما تتضمنه من ركوع

وسجود، فعلوا ذلك بكثير من الحذر. كما انتشرت في السجن جلسات تبادل تحفيظ القرآن، وقراءة سور خاصة منه بهدف الحماية أو درء الأذى. وقد روى أكثر من شاهد تجربته الشخصية المؤثرة في ذلك.

كان هذا فقط ما يمكن فعله في السجن، بالإضافة إلى تفسير الأحلام والتعلق بها. نظمت إحدى الزنزانات "دورة" في تاريخ سورية المعاصر، مرّت بسلام، في حين أن زنزانة مجاورة اقتطعت من طعامها القليل جزءاً صنعت منه أحجاراً للعب الضامة. ولما اكتشف السجان ذلك عاقبهم بإغراق زنزانتهم بالماء حتى توفي أحدهم.

لا يُعرف حتى الآن من ارتكب كل هذه الفظائع، فرؤية السجانين أمر شديد الخطورة في سجن صيدنايا. إذا صدف ورأيت وجه السجان سيكون مصيرك الموت. أما إن حدثته وأجابك، دون ضرب، فهو "ابن حلال". ورغم وجود بعض من هم أقل شراً من الآخرين إلا أن تمييز هؤلاء عسير، وكثيراً ما انتهت القصص التي أوحت بدايتها بالتعاطف بمفاجآت غير سارة. اللهجة المعتمدة للسجانين هي اللهجة العلوية، لكن بعضهم كان علوياً بالفعل وبعضهم كان ينتحل هذه اللهجة كنوع من الاستقواء والتسلط.

لا توجد معلومات كافية عن هيكلية السجن وطاقمه، غير أن المدراء الذين تولوه خلال الثورة، كما رصدت الرابطة حتى الآن، هم:

- العميد طلعت محفوض: منذ قبل الثورة وحتى مقتله في 7 أيار 2013. كان مدير سجن تدمر. من طرطوس، الدريكيش.
- العقيد إبراهيم حسن: منذ مقتل محفوض وحتى نهاية 2013.
- العميد أديب إسمندر: لشهرين في مطلع 2014. كان رئيس الشرطة العسكرية باللاذقية.
- العقيد محمود معتوق: منذ شباط أو آذار 2014 وحتى وفاته في 12 كانون الثاني 2018. من اللاذقية.
- العقيد حسين محمد: من اللاذقية.

أما الشهود الذين التقيناهم فقد ذكر معظمهم أسماءهم الحقيقية كما أوردناها، إلا إذا اقتضى الأمر إخفاءها لسبب أو لآخر، كما في حالات (أبو الفتح؛ أبو عمر؛ محمد؛ أبو أنس الحموي؛ أم علي).

(شهادات)



شهادة أبو الفتح

في الشهر الخامس من عام 2011 وصلنا إلى المبنى الأبيض بسجن صيدنايا. كنا سبعةً قادمين من فرع فلسطين التابع للأمن العسكري. أدخلنا عناصر الشرطة العسكرية إلى غرفة وأمرونا أن نخلع ثيابنا بغرض التفتيش، وأوعزوا لنا أن نخلعها كلها. رفضنا ذلك. بقي بعضنا بملابسه الداخلية واحتفظ بعضنا بالبنطال. كان هذا مفاجئاً لهم، فقد كان توافد الضباط المتهمين بالانشقاق قد بدأ منذ مدة وكان السجانون يعاملونهم بشكل سيئ جداً. تلاسنّا معهم فاتصل الضابط بمدير السجن. أخذوا وقتاً كي يعتادوا على ردودنا عليهم ويعرفوا أننا سجناء قدامى من أبناء الدعاوى الإسلامية.
عزلونا في قسم خاص، في آخر غرفة على جهة اليسار من المبنى الأبيض، بجانب غرفة المشرفين على المهاجع. كان لغرفتنا شباك يطل على الجبال القريبة، فاعتدنا مشهد راعٍ بعيد يأتي بقطيعه كل يوم وصرنا ننتظره لنشعر بالأنس. تحسنت نفسياتنا عما كانت في الأفرع الأمنية. صارت معاملة السجانين لنا جيدة ومختلفة تماماً عن المهاجع المجاورة لنا، حتى أننا فوجئنا بدرجة سوء المعاملة التي كان الضباط المنشقون يتعرضون لها، فقد كانوا يُعاقَبون في الممر أمام مهجعنا وكنا نسمع الأصوات، كما كنا نستطيع رؤيتهم من شبك أسفل الباب. كان السجانون يسألون العسكريين المعتقلين عن رتبهم ومدنهم، ويتهمونهم بخيانة الوطن الذي "أكلوا من خيره". كان بوسع أي مجند توجيه هذه الاتهامات والإهانات لأي ضابط حتى لو كان برتبة معتبرة.
أذكر أننا، في أحد الأيام، سمعنا جلبة كبيرة وأصوات صياح. كان السجانون يفتشون المهاجع الواحد تلو الآخر، وأثناء ذلك كانوا يخرجون النزلاء ويعاقبونهم عقاباً شديداً. نحن انهرنا بصراحة، لكنهم لم يقتربوا من مهجعنا. منذ قليل فقط كان أحدهم عندنا، ربما كان ضابطاً، وقال إننا سنُنقل إلى سجن آخر حيث سنلتقي بأبناء دعوتنا وسنتلقى معاملة جيدة وسنُعرَض على محاكم. كان التعذيب الذي رأيناه وسمعناه مما تعرضوا له أشد من كل ما تعرضنا له نحن أو رأيناه أو سمعناه في الأفرع الأمنية. نحن متأكدون من أن بعضهم قد مات تحت الضرب غير الطبيعي بعصيّ الحديد والخشب على أي مكان من أجسادهم بما فيها الرأس. حصلت حفلة تعذيب كهذه أكثر من مرة أثناء وجودنا، وفي كل مرة كان عناصر الشرطة العسكرية يمسحون بقع الدم والقيح عن أرض الممر بعد انتهاء الجولة.
عندما كنا في فرع فلسطين، قبل الثورة طبعاً، كانوا يتوقفون عن التعذيب، غالباً، إن فقد السجين الوعي، فقد كانوا يحسبون حساباً لموته بين أيديهم، أو ربما يكون ذلك تنفيذاً لأوامر رئيس الفرع. أما هنا فكانوا يضربون المنشقين على رؤوسهم بالعصيّ المعدنية، وعندما يهوي الضحية ساكناً كانوا يتابعون الضرب. لم يكن ذلك ضرباً، بل إعداماً عن طريق الضرب.
طالبنا بوصول الجرائد كي نعرف ما يجري في الدنيا فاستجابوا لنا. أحضروا لنا جرائد متراكمة لشهرين فائتين، أي منذ بداية الثورة. كنا نعرف كيف يفبرك النظام الأخبار ولذلك كنا قادرين على استنتاج القصة الأصلية من ركام الرواية الموجّهة التي نشرتها هذه الجرائد الرسمية التي لم يكن الحصول على غيرها ممكناً. فمثلاً إن كتبت الصحيفة أن السلطات شنت حملة اعتقالات ضد "مجموعات إرهابية" في بانياس كنا نستنتج وجود حراك ثوري في هذه المدينة، وهكذا.
معاملتهم لنا كانت جيدة. وكانوا يشترون لنا "ندوات خارجية"، وهي أن تطلب ما تريد شراءه من الخارج وتدفع ثمنه مما لديك من نقود في "الأمانات". في كل مدة كان يزورنا ضابط، ربما كان برتبة ملازم، فيسألنا عما نحتاج ويتودد لنا.
كنا نريد الالتقاء بأبناء دعوتنا الموجودين في المبنى الأحمر فطلبنا التحويل إلى هناك، لكن السجانين أبلغونا أن ننتظر حتى نُعرّض على المحكمة. وبالفعل، بعد حوالي أسبوعين من وصولنا حولونا إلى محكمة عسكرية عُقدت داخل المبنى الأحمر. هناك التقينا بأبناء دعوتنا الذين كانوا مرتاحين جداً لا يأبهون حتى لتعليمات مدير السجن

طلعت محفوض. ولما رأونا مقتادين، مكلبشين مطمشين، هاجوا وطالبوا رئيس المحكمة بنقلنا إليهم. وفعلاً، في صباح اليوم التالي نقلونا إلى المبنى الأحمر فالتقينا محفوض الذي كان متعجرفاً جداً، لكنه يحتفظ للسجناء القدامى بمكانة، فنبهنا إلى عدم إثارة المتاعب وقال: "أنتو بحالكن ونحن بحالنا".

أقمنا ثلاثة أيام فقط في قسم السجناء السياسيين في المبنى الأحمر، قبل أن يبدأ، في مطلع حزيران، الإفراج عن البعض وتحويل آخرين إلى السجون المدنية في محافظاتهم، أما أنا فحولوني إلى سجن دمشق المركزي (عدرا).



شهادة طه البكور

اسمي طه البكور. من مواليد 1982 في مدينة كفريتا التابعة لحماة. أحمل شهادة في الأدب الإنكليزي من جامعة دمشق. بدأت خدمتي العسكرية الإلزامية في حزيران 2010، فخضعت لدورة في مدرسة الشرطة العسكرية بالقابون بدمشق، ثم فرزت إلى فرع الشرطة العسكرية باللاذقية.

منذ أيام الثورة المصرية أخذت اللجنة الأمنية للاذقية تجتمع في مقر الشرطة العسكرية بالشيخ ضاهر، مقابل مبنى المحافظة الجديد الذي لم يكتمل. بدأت الثورة السورية وأخذت تمتد إلى المدن المختلفة، فخرجت أولى مظاهرات اللاذقية في 25 آذار 2011، ومنذ ذلك الوقت وضعونا في مواجهتها. كنا نستخدم سيارات حكومية مختلفة للتنقل، كسيارات مديرية الزراعة مثلاً، وبملابس مدنية.

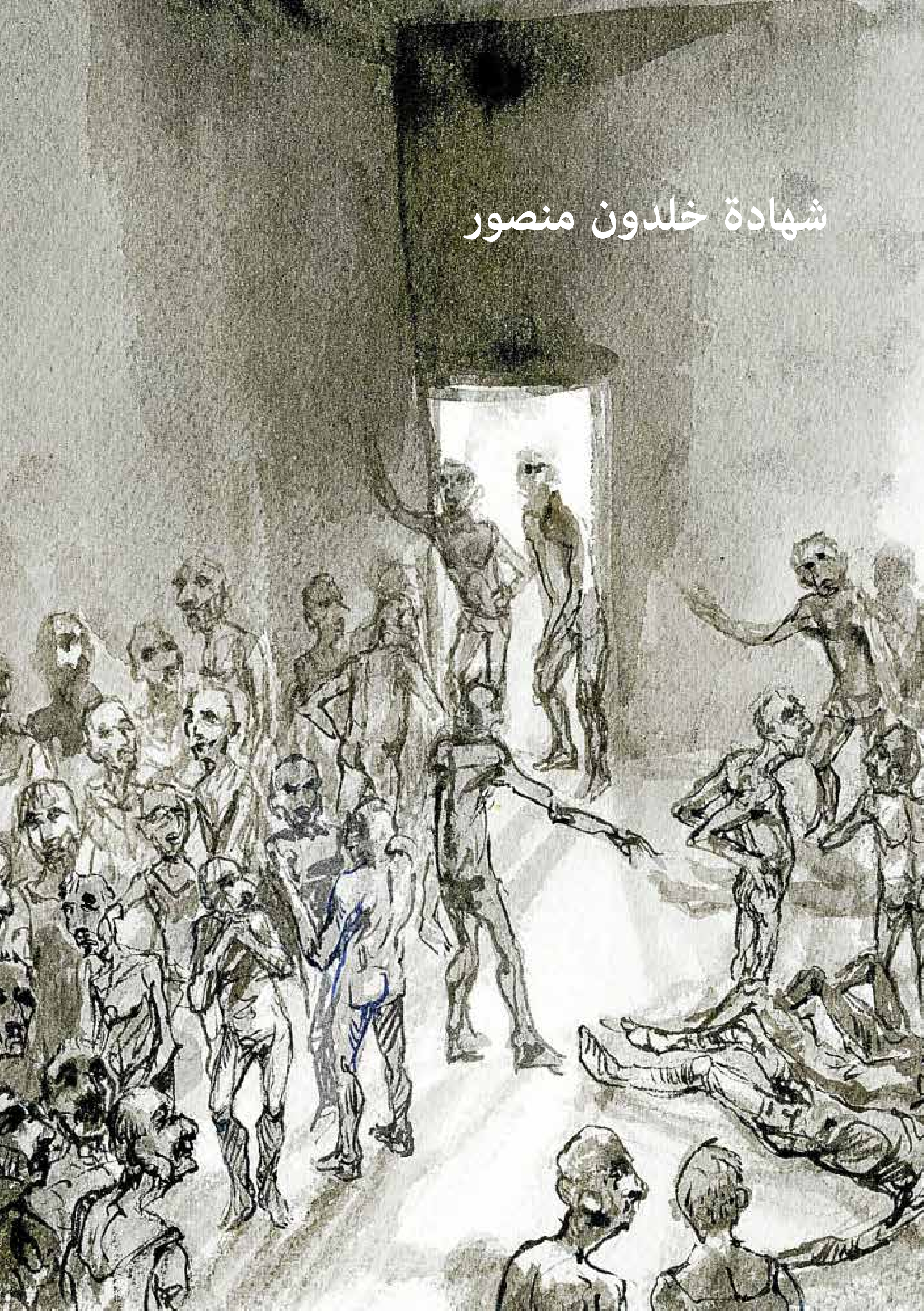
في اليوم التالي، السبت 26 آذار، قام بعض المتظاهرين بالمرور أمام فرعنا وأخذوا يهتفون، فأطلق عناصر الفرع النار عليهم فقتلوا ستة وأصيب آخرون. كانت هناك أوامر شكلية بعدم إطلاق النار إلا بإذن، ولذلك جاءت لجنة من دمشق للتحقيق، ففبرك عناصر الفرع قصة بزرع عدة مقاذيف في جذوع شجر النخيل الموجود داخل سور الفرع مقابلاً للشارع، وزعموا أن المتظاهرين بدأوا بإطلاق هذه النيران مما اضطر العناصر للرد عليهم دفاعاً عن النفس، بالإضافة إلى شهادة كاذبة أدلى بها أحد العناصر عن عثوره على بعض الفوارغ في الكازية مقابل الفرع، حيث كان المتظاهرون.

بعد مدة أنشئ حاجز مشترك بين الشرطة العسكرية والقوات الخاصة في ساحة أوغاريت وسط اللاذقية. كنت أحد الذين يداومون في هذا الحاجز وأخذنا نتواصل مع صف ضباط من القوات الخاصة، وكان الحديث يدور عن الانتهاكات التي يقوم بها رجال الأمن والشبيحة في اللاذقية بشكل مستمر. بعد مدة اتفقنا على الامتناع عن إطلاق النار على المدنيين، وفي حال إجبارنا على ذلك كنا نفكر بعصيان الأوامر أو بالفرار. كشفت المخابرات مخططنا واعتقلوا جماعة القوات الخاصة ثم اعتُقلنا من فرعنا. كنا 11 صف ضابط بين مجندين ومتطوعين، 4 من القوات الخاصة والباقي من الشرطة العسكرية. 70% منا جامعيون.

اعتقلني فرع الأمن العسكري في اللاذقية في 31 أيار. تم التحقيق معنا ثم حولونا في 22 حزيران إلى الفرع 291 في دمشق، وفي 4 تموز إلى فرع التحقيق (248) الذي قضينا فيه خمسة عشر يوماً. في 19 تموز حولونا إلى سجن الشرطة العسكرية بالقابون لليلة، وفي اليوم التالي حولونا إلى سجن صيدنايا.

عندما وصلنا إلى صيدنايا تعرضنا لدولاب الاستقبال المعروف، ثم وضعونا في المبنى الأبيض لنصف شهر تقريباً، ثم نقلونا إلى منفردات المبنى الأحمر. وبعد المنفردات حولونا إلى المهاجع، كل 5-3 أشخاص في مهجع. كانت أعداد المعتقلين لصالح قضايا تتعلق بالثورة قليلة وقتها، ربما كان عدد العسكريين ثلاثين والمدنيين ستين. ولأن عددنا قليل كان باستطاعة سجان واحد أن يدخل علينا فيضرب جميع من في المهجع. في بعض الأيام كانوا يدخلون أربع مرات لضربنا. تستطيع أن تسجل ما شئت من أنواع التعذيب، فقد تعرضنا لها جميعاً، لكن أصعبها برأيي كان الحرمان من الطعام والشراب لفترات طويلة.

شهادة خلدون منصور



الاعتقال والتحقيق

في السابعة صباحاً من يوم 5 كانون الأول 2011 تم اعتقالي من القطعة العسكرية التي كنت أخدم فيها. أخذوني إلى الفرع 293 حيث عرضت على رئيس قسم التحقيق في الساعة الحادية عشرة ليلاً من اليوم نفسه. واجهوني بشخص مدني كانوا قد وجدوا رقم موبايلي في هاتفه الخليوي وسألوه ماذا تعرف عن الملازم أول خلدون فقال إنني كنت أتعامل معهم وأجتمع بهم وأساعدهم في التخطيط لعمليات ضد ضباط من الطائفة العلوية من الذين شاركوا في اقتحام قطنا ومارسوا أثناء ذلك انتهاكات في حق السكان.

أنكرت ذلك تماماً. وفي الثانية صباحاً أخذوني إلى غرفة كانت تحوي حوالي 15 عنصراً من المخابرات العسكرية. وبعد دقائق جاء المحقق وقال أتى الأمر باعتقالك من رئيس الشعبة. نزع الرتب من على كتفيّ. كلبشوني ووضعوا لي عصابة العين (الطميشة) وأنزلوني إلى المنفردة. أخذوني إلى التحقيق بعد أسبوع وضربوني بالدولاب ولكني لم أعترف بشيء.

بعد أن ظللت في المنفردة خمسة عشر يوماً حولوني إلى مهجع جماعي. ثم نقلوني إلى الفرع 248 الذي بقيت في إحدى منفرداته حوالي أسبوع نقلوني بعده إلى سجن صيدنايا الذي دخلته في 20 كانون الثاني 2012. هنا يبدأ فيلم الرعب في الحقيقة. فقد استنتجنا أن ما يحدث في الأفرع الأمنية من تعذيب يعدّ بسيطاً بالقياس إلى ما سنتعرض له.

إلى سجن صيدنايا

عندما أخرجونا من الفرع 248 سلمونا الأغراض الشخصية التي كانت مع كل منا عند اعتقاله، والتي يسمونها "الأمانات". كلبشونا وطمشونا ووضعونا في سيارة كبيرة مغلقة (براد). لم نكن نعرف وجهتنا بالطبع، لكنني استرقت النظر عندما وصلنا فعرفت أننا وصلنا إلى سجن صيدنايا الذي سبق لي أن اعتُقلت فيه عام 2008 ولكن في البناء الأبيض.

فتح عناصر الشرطة العسكرية باب السيارة وكنت جالساً قربه. لم يضعوا درجاً أو سلّماً لنزولنا بل كانوا يمسكون الواحد منا ويلقونه على الأرض وكأننا غنم. وأثناء ذلك كانوا يشتموننا بأعراضنا من أمهات وأخوات وزوجات. بعد أن أنزلونا أمرونا بالاستلقاء على بطوننا بوضعية منبطحاً، وكانت أيادينا مكلبشة خلف ظهورنا وعيوننا مطمشة. أخذوا أسماءنا وهم يضربوننا. ثم أدخلونا إلى المبنى الأحمر فأنزلونا طابقاً أو اثنين تحت الأرض. هناك نزعوا الكلبشات عن أيادينا مع بقاء الطماشات وأمرونا بخلع ثيابنا. لم نتوقع أن علينا التخلي عن ملابسنا الداخلية أيضاً لكنهم أمرونا بذلك.

وزعونا على المنفردات التي كان الوضع فيها مأساوياً للغاية. هناك حنفية لكن المياه لا تصل إليها والصرف الصحي لا يعمل. بعد أن أمضينا هكذا مدة 35-30 يوماً أصعدونا إلى مهاجع حيث كنا حوالي 40-35 شخصاً في المهجع الذي لا يحوي سوى بطانيات عسكرية، ثلاث منها للواحد عموماً.

بقيت هنا حوالي سنتين ونصف.

في المهجع

عند توزيع الطعام كانوا يخلطون أنواع الأكل معاً، فيضعون الفطور والغداء والعشاء في "قصعة" واحدة سوياً. وفي أغلب الأحيان كانوا يفرغون الطعام على بلاط المهجع لنأكله، وأحياناً كانوا يرمونه في المرحاض كي لا نتمكن من تناوله.

أثناء توزيع الطعام يطلب المساعد أو الرقيب المسؤول عن الجناح من رؤساء المهاجع أن يُخرجوا المخالفين لدى كل واحد منهم. يقع رئيس المهجع، وهو من السجناء، بين نارين؛ فإما أن يُبلغ عن بعض زملائه فينجو، أو أن يقول إن أحداً لم يخالف فيتلقى هو الضرب نيابة عن أفراد المهجع كلهم.

كان الضرب يتم بكل أساليب التعذيب الموجودة بين أيدي السجانين؛ بالدولاب أو بالعصا الكهربائية أو بالهراوات أو بمواسير المياه البلاستيكية الخضراء. وفي المرحلة الأخيرة أضافوا إلى ذلك بورية الحديد التي كانوا يسمونها "أم كامل".

في إحدى المرات تعرضت للضرب بها. ناداني السجن فاستجبت طبعاً. كانت الوضعية التي يطلبونها في هذه الحالة أن تضع يديك على عينيك وتحني رأسك إلى الأسفل. قال "هل تعرف أم كامل؟" قلت: "لا" فقال: "ستتعرف إليها الآن". ضربني بالأنبوب المعدني ضربة واحدة على رأسي ففتحت عينيّ لا إرادياً ولم أر سوى السواد. هربت إلى داخل المهجع لأندس بين زملائي فصار يشتمني ولحقني فضربني ضربة ثانية على عمودي الفقري. وقعت أرضاً وأحسست بالشلل في نصفي الأسفل لمدة 20-10 ثانية. صرت أبكي وقلت بشكل عفوي: "يا رب... والله ما ساوينا شي لهيك" فقال لي: "عم تسأل ربك؟ ربك موجود عندنا تحت بالزنزانة" وضربني الثالثة على عضلة كتفي الأيمن. كان زملائي واقفين ووجوههم إلى الجدار كالعادة، إذ يمنع أن ترى السجانين، ومن يلاحظون أنه رأى أحداً منهم كانوا يقتلعون عينيه ويعيدونه. وصلت إليهم وهويت أرضاً بينما كان السجان يخرج. أغمي عليّ لربع ساعة تقريباً. عندما صحوت طلبت من زملائي أن يوقفوني على قدميّ لأتأكد إن كنت سليماً أو أصبت بالشلل. كنت أبكي وصار الجميع يبكون معي. أسندوني فتمكنت من الوقوف والحمد لله.

في مرة أخرى كسروا لي أحد أضلاعي. بعد العقوبة تقدم مني أحد العساكر وضربني على طرفي الأيسر. ظللت مريضاً بعدها حوالي 45 يوماً. خلال هذه المدة لم أسلم منهم. حتى لو كان أحد أعضائك مكسوراً ستتعرض للصفع والركل والشتم.

أثناء وجودنا في السجن كنا نملك الأمل بالله أن الثورة ستنتصر وأننا سنخرج، رغم وجود بعض الضعفاء. فعلى سبيل المثال كان أحد زملائنا في المهجع يجلس في الزاوية ويردد دوماً: "خلص... راحت علينا. رح يصير فينا متل جماعة الإخوان المسلمين وما عاد نطلع بحياتنا. بكرة رح يصفونا، وبكرة بدهن يعدمونا". كان هذا محبطاً جداً.

الموت والقتل

من الذين ماتوا معنا ابن دورتي الضابط أيهم قنزوعة من ريف اللاذقية، وقد توفي بسبب المرض. استيقظنا صباحاً فوجدناه مصاباً بالحمى والدم يسيل من أنفه وعينيه محمرتين. وبالمرض نفسه مات شاب يدعى خضر القاسم من تلكلخ. وقتل النقيب القاضي نايف فيصل الرفاعي من درعا.

كنت أحب الرفاعي لأنه كان متفائلاً، كان يردد: "بدنا نطلع وبدنا نسقّطه للحيوان". بعد الزيارة الأخيرة له من

زوجته كان في وضعية جاثياً المعتادة ويداه على عينيه فضربه أحد العساكر على معدته من الأعلى. عندما دخل إلى المهجع كان منهكاً. جلس على الأرض وصار يقول: "قتلوني... قتلوني ولاد الكلب". في اليوم الثالث كنا نتناول وجبة الفطور عندما طلب أن يذهب إلى الحمام. حاولت مساعدته فهوى بين يديّ. فحصه شاب يعرف قليلاً بالطب فقال إنه استشهد رحمه الله.

غسلناه ولففناه ببطانية. عندما أتى السجان في اليوم التالي سأل: "شبه هادا ولاك عرصة؟"، فقد كانوا يطلقون على رئيس المهجع "عرصة المهجع". فأجابه: "مات". عاود السجان السؤال: "مات وإلا فطس؟" فأجاب: "فطس". قال: "لا تكونوا أنتو قتلتوه ولاك؟" فأجاب رئيس المهجع: "لأ سيدي، هو مات لحاله". قال السجان: "طيب ماشي... اشحطه وزتّه برّه".

جناح الجحيم

كنا في الجناح (ج) الذي كانوا يطلقون عليه "جناح الجحيم"، ولم يكن هذا الوصف مجانباً للحقيقة. فمثلاً كان ممنوعاً أن تحتفظ بأي ملابس سوى التي ترتديها. ومرت علينا ثلاثة أشهر دون ماء في الخزان الذي كان خرباً. كانوا يدخلون لنا عشرين ليتراً من الماء في اليوم، وكنا حوالي أربعين شخصاً.

كان العذاب النفسي أشد من التعذيب الجسدي. فمثلاً كان أحد العساكر يأتي ويفتح الطاقة التي في الباب (الشرّاقة)، وهنا كان علينا وفق التعليمات أن نتوجه فوراً إلى صدر المهجع بوضعية جاثياً ويضع كل منا يديه على عينيه ووجهه إلى الجدار. يمنع أن تنظر إلى الخلف ويمنع نهائياً أن ترى السجان. كان يفتح الشراقة متى شاء ويشتمنا بأمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا. كنا نتمنى أن يدخل فيضربنا ولا نسمع هذا الكلام.

من أقذر العقوبات التي كنا نتعرض لها أن ينتقوا أي اثنين ويأمرونهما فيقفان متقابلين وبيد كل منهما "شحاطة" عليه أن يضرب زميله بها على وجهه. كان القصد من مثل هذه العقوبة الإذلال. أنت هنا مجرد رقم.

في المرحلة الأخيرة من سجننا كانت تجري إعدامات بطريقة غير مباشرة؛ كأن يضربوا المعتقل ضربات قاتلة على مناطق حساسة كالنخاع الشوكي أو الرأس أو المعدة.

خرجنا من السجن على دفعتين في منتصف حزيران 2014، وبعدها توقفت الإفراجات من صيدنايا إلا بشكل إفرادي.

شهادة أبو عمر



الاعتقال

في أحد الأيام الأولى من تشرين الثاني 2011 كنت نازل "مبيت" إلى منزلي، وهو ما نسميه "مغادرة". وعندما عدت إلى الدوام رأيت سيارة تقف أمام خيمتي، كانت سيارة قائد الكتيبة. لم يكن أمراً معتاداً أن يزور قائد الكتيبة ضابطاً صغيراً برتبة ملازم أول مثلي. أخذني بالأحضان والقبلات والسلام الحار مما عزز استغرابي، وبعد ذلك قال إن قائد الفوج يطلبني. كان مقر قيادة الفوج في معسكر للتدريب الجامعي بحمص. وهو فوج قوات خاصة. ركبت مع قائد الكتيبة بسيارته وغادرنا موقع كتيبتنا في القصير إلى قيادة الفوج.

عندما وصلنا إلى ساحة المعسكر رأيت رئيس أركان الفوج، وهو ضابط علوي من مصياف، من قرية تدعى بعرين، وهو شخص طائفي جداً. أخذني بالأحضان كذلك وكرر طلب قائد الفوج لي. تأبط يدي وذهبنا إلى مكتب قائد الفوج، وهناك دفع الباب الموارب وأدخلني أمامه ثم دفعني بيده بقوة. فوجئت بثلاثة أشخص، أحدهم يجلس فوق خزانة كانت على يمين الباب من الداخل واثنان وراء الباب مباشرة. كانوا عناصر أمن. رموا أنفسهم عليّ بمجرد دخولي فشعرت بالرعب. صاروا يفتشون جسمي بسرعة بحثاً عن مسدس أو قنابل. لم أكن أحمل شيئاً في الحقيقة ولم أفهم ما هو الموضوع!

كلبشوني...

نظرت إلى يميني فوجدت اثنين من قادة السرايا، أحدهما من القصير سيُقتل تحت التعذيب في السجن لاحقاً، والآخر من أريحا بإدلب. مكلبشين ووجهاهما إلى الحائط. سألت من هاجموني: "خير؟ شو في؟" فأجابوني: "لا تحكي ولا حرف! اقطع الصوت وصفّ جنب زملاءك!". فعلت ذلك. بعدها أتوا بأكياس وضعوا واحداً حول رأس كل منا وأخذونا إلى باص صغير.

اقتادونا إلى الفرع 261، وهو فرع الأمن العسكري بحمص. هناك نزلنا من الباصات وأركبونا في سيارات فان بعد أن طمشوا أعيننا، إلى الفرع 293، وهو فرع شؤون الضباط، الموجود في العاصمة.

في دمشق

كنت أشعر بوجود عدد كبير من الأشخاص المحتجزين حولي، لكنني لم أعرف من هم حتى رفعت الأكياس من حول رؤوسنا وقبل وضع الطماشات. كانوا 59 ضابطاً سنّياً في الفوج، منهم 11 قائد سرية والباقي قادة فصائل.

في الفرع 293 أنزلونا فوراً أدراجاً طويلة تحت الأرض واقتادونا إلى زنزانات طول الواحدة منها ثلاث بلاطات وعرضها بلاطتين ونصف، بما فيها حفرة لقضاء الحاجة وحنفية. أي أنك ستقضي وقتك كله في وضعية القرفصاء.

مرت عشرة أيام دون أن يسألني أحد شيئاً! كنت متوتراً بشدة. كنت أريد أن أفهم ما هي تهمتي؟ لماذا أنا هنا؟ وأين أنا أصلاً؟

بعد عشرة أيام فُتح الباب. رموا لي طماشة لأضعها على عينيّ. كلبشوني وأخذوني إلى المصعد فركبناه عدداً من الطوابق. أدخلوني إلى مكتب للتحقيق، وهناك لمحت ساعة تشير إلى الحادية عشرة. لم أعرف إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً حتى قال أحد الموجودين بملابس مدنية لآخر: "سيدي... بقيت ساعة واحدة على انتهاء الدوام" فعرفت أننا في الليل.

بدأ التحقيق. أنزلوني إلى "الشبْح". هناك وجدت رجلاً متقدماً في السن يتولى تعذيبه عسكري شاب من حلب،

يدوس عليه بقدميه ويشتمه ويسبّه. لاحظت أن العسكري تأتيه طلبات بين الوقت والآخر لتوصيل كاسات شاي إلى المكاتب. أي أنه مجرد حاجب أعطوه هذا الموقوف ليتسلى فيه!
سألت المسنّ عن وضعه فقال: "أنا العميد فلان، قائد مطار مرج السلطان". وهو مطار حوامات قرب دمشق. صعقت وشعرت بالرعب وقلت في نفسي إذا كان العميد يُداس بالأقدام فما الذي سيحدث لي أنا؟!
نظرت حولي وإذ أجد عدداً من الحمامات الصغيرة المتجاورة وفي كل منها شخص معلق من الكلبشات التي بيديه إلى أنبوب يقطع الحمامات كلها، ويمسّ الشخص الأرض برؤوس أصابع قدميه. هذا هو "الشبح". كان بعضهم ينزف من معصمه، وبعضهم يصرخ من شدة الألم. بمجرد أن يسند الشخص قدميه إلى الأرض قليلاً تشد الكلبشة على معصميه من الأعلى، وإن رفع نفسه ليريح يديه تتألم رجلاه. مشاهد مرعبة جداً. هناك بعض من أمضوا مدة على هذه الحال فكان أرجلهم متورمة وجلودها تتشقق ويسيل منها الدم.
شبحوني لمدة أربع وعشرين ساعة، ثم أصعدوني إلى التحقيق من جديد. وهناك قال أحدهم للآخر: "خذه إلى الصالون". أنزلوني إلى "الصالون" الذي كان عبارة عن ممر تقف في منتصفه إذ يمنع الاستناد إلى الجدار، وأنت مكلبش اليدين إلى الوراء. كان فيه أربع ضباط معتقلين من فوجنا وشخص مدني من درعا. سألته "ما تهمتك؟" فقال "المشاركة في مظاهرة". كان يصيح مستنجداً. سألته عن السبب فقال إن السجان يمنعه من التبول منذ الأمس، وهو يجبره على شرب الماء، ويهدده بالضرب إن تبول في مكانه!!
نصحته أن يتبول ففعل. ولما أتى السجان ورأى ذلك صفعه كفاً واحداً رماه في الأرض، وأتى بمطاطة ربط له بها عضوه الذكري وعاود إجباره على الشرب.
أمضينا في الفرع ستين يوماً على هذا الحال، ضرب وشبح. في إحدى المرات وصلت إلى حافة الإغماء من شدة ألم الشبح ويداي مشدودتان بالكلبشة خلف ظهري. وصرت أصرخ بالآية القرآنية: "أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء"، وإذ برائد اسمه سامر (على ما أذكر) قادماً نحوي. أدخل حذاءه في فمي فأسكت صوتي وقال: "من هذا الذي تدعوه؟ من يجيب المضطر إذا دعاه؟ الله؟ من الله؟ من ربك؟ نادِه مجدداً لنرى كيف سينفعك؟ إن جاء فسأعاقبه معك! سأشبح ربك معك إن أتى إلى هنا! عاوِد نداءه وأنا بانتظاره هنا!". بعد أن تركني بدقيقة جاء رئيس الفرع رفيق شحادة وسأل عن وضعي ثم أمر بفك قيودي وأخذي إلى المهجع.
نقلونا إلى سجن صيدنايا بعد شهرين في الفرع كما قلت. كنا نظن أننا سنرتاح هناك لكننا اكتشفنا أن معاناتنا الحقيقية ستبدأ مع دخولنا.

في سجن صيدنايا

نقلونا إلى هناك، في 4 كانون الثاني 2012. خمسين شخصاً بسيارة بوكس، وهي حاوية قمامة. عندما وصلنا صعد إلى صندوق البوكس شخصان من طاقم السجن صارا يمسكان بكل واحد منا وهو مكلبش ويرميانه إلى الأرض كيفما اتفق، فربما سقط على ظهره أو يده، وكأنك ترمي كيس بصل من شاحنة. أدخلونا وأخذوا ذاتياتنا ونحن مطمشون وسط ضرب لم يتوقف. ثم أخذونا خمسة فخمسة إلى الدولاب. يخلع الواحد منا عارياً تماماً ويتناوله شخصان بالضرب، أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. وبعد أن ينتهيا كان هناك ثلاثة أشخاص لنقل السجين؛ يمسكه أحدهما من رجله والثاني من الأخرى، فيما يسحبه الثالث من يديه، ويرمونه في الزنزانة تحت الأرض بعد نزول درج.

أمضينا في الزنازين عشرين يوماً. يأتي السجان فيرمي لنا الطعام وكأنه يرمينا بحجارة، فيرتطم البيض بالأرض وينفلش، وكذلك رغيف الخبز الذي يضعون عليه اللبن. يتناثر الأكل على الأرض وكنا نأكله طبعاً فالطعام قليل جداً. كنا خمسة ضباط في كل زنزانة، وكان السجان يرمي لنا رغيفين من الخبز وبيضتين، وقد يضعون بعض اللبن على الخبز وكأنه تقدمه لقط. وكلما يأتي السجان بالطعام كان يعاقب كلاً منا بدولاب. لم يكن التعذيب في الزنازين محتملاً. كنا عراة بالكامل، والبرد شديداً جداً في هذه البلدة التي تعدّ مصيفاً. أعطوا كلاً منا ثلاث بطانيات عسكرية تعجّ بالقمل، إحداهن مبللة بالماء فاضطررنا إلى عدم استخدامها والاكتفاء باثنتين، نفرش الأولى على الأرض ونتغطى بالثانية.

في المهجع

بعد عشرين يوماً قالوا: "قررنا أن ننقلكم إلى المهاجع فوق ونعاملكم كبشر. وفي حال المخالفة سيعاقب المخالف بالنزول إلى هنا". صعدوا بنا. وأمام باب المهجع ضربونا بشكل شديد ثم أدخلونا. وأيضاً كانوا يوزعون الطعام رمياً إلى الداخل فكنا نلمه من الأرض ونأكله. ورغم ذلك يمكنك أن تقول إن السجن كان "جيداً" نوعاً ما بالقياس إلى ما سيحدث في السنة القادمة وما بعدها. كانوا يضربوننا مرتان في الأسبوع فقط، وكمية الطعام كانت تكفي.
منذ 2013 بدأت الكارثة. صار السجناء يموتون، في جناحنا كان لا يمر أسبوع دون حالة وفاة أو حالتين إن لم يكن أكثر. انتشر الجرب والقمل. زاد التعذيب بعد أن قتل الثوار مدير السجن طلعت محفوض. كان الذي تلاه مجرماً حقيقياً، وبدأت التصفيات.
عندما دخلنا إلى المهجع وجدنا فيه ستة أشخاص؛ أربعة من الرستن، وواحد من شرقي حماة، والأخير من الضمير وكان اسمه علي عيسى. كان قد أطلق النار على دورية إسرائيلية أثناء عدوان غزة. كان نطقه ضعيفاً جداً. وبعد أن تعارفنا بمدة سألته عن السبب فقال لي إنه أمضى ما يزيد على ثمانية أشهر في المنفردة دون أن يتكلم مع أحد فأخذ يفقد النطق. كان يتأتئ ويتكلم بشكل مكسّر، ورغم ذلك أخبرنا الرفاق الآخرون في المهجع أنه عندما أتى كان يتكلم بطريقة غير مفهومة فاضطروا إلى تعليمه نطق الأحرف حتى استعاد قدرته على الكلام المضطرب عندما رأيته. هذا الشخص بطل.
وبعد مدة أدخلوا علينا سجناء جدد كان من بينهم الأخ رنس المصلح.

رنس المصلح

كان من الأوائل على دورته واختصاصه إشارة. أوفد ببعثة إلى إيران. ولما أنهاها وعاد لم تمض مدة قصيرة حتى كُتبت فيه تقارير فاعتقل. كان رجلاً بكل ما تعنيه الكلمة. عندما أتى السجان وقال: "من يريد أن يصبح رئيساً للمهجع؟" تهرب الجميع. كنا نعرف أن مصير رئيس المهجع هو الموت لكثرة ما يتعرض له من ضرب. اختار السجان رجلاً مريضاً لرئاسة المهجع فتطوع رنس بدلاً عنه. يتعرض رئيس المهجع يومياً لضرب مبرح قد يفضي إلى الموت. كان السجان يدخل إلى الجناح ويصيح من باب الممر: "رؤساء المهاجع" أو "عرصات المهاجع" أو "خنازير المهاجع"... "الكل يشلح بالشورت". ويضربهم بالأنبوب الأخضر المعروف الذي يستعمل للتمديدات الصحية، ثم يخرج.
كان السجانون يسألون رؤساء المهاجع عن أسماء المخالفين لديهم. وكان رنس يجيب دوماً "لا يوجد مخالفون" فيتعرض هو للضرب بسبب ذلك. بالفعل لم نكن نخالف، إذ لم نكن نجرؤ على التنفس! كنا نطلب منه ذكر بعض

الأسماء للتخفيف عن نفسه فكان يجيب: "سنموت على جميع الأحوال، كلنا هنا سنموت، ولن أظلم أحداً. لا أريد أن يقاضيني أحد الإخوة عند رب العالمين فيقول رنس ظلمني. فليضربوني حتى أموت". حاولنا معه فلم يقبل. وبعدها قررنا أن ننظم دوراً بأسماء مخالفين مفترضين، كل يوم اثنين ليتلقيا العقوبة ويرضى بذلك السجانون. غير أننا لم نستفد شيئاً، كانوا يضربونهما ويضربون رنس معهما.
كنا معزولين عن العالم الخارجي تماماً. نريد أن نعرف أي خبر لكن دون جدوى. كان مجرد الكلام ممنوعاً، ولو جاء السجان فسمع همسة واحدة في الجناح سيضرب جميع الموجودين فيه. ما تريده من زملائك تطلبه بالإشارة. لكن زوجة رنس كانت ترسل له رسائل صغيرة بقصاصات ورق طول الواحدة 5 سم وعرضها 2 سم تدخلها مع المطاط في سير البنطال الذي تجلبه له معها في الزيارة، وتكتب فيها بعض رؤوس الأقلام. كانت هذه الأخبار موثوقة لدينا لكن الزيارة لا تحصل إلا كل أربعة أشهر. وكنا ننتظرها لنعرف شيئاً عن العالم الخارجي.

نظام الزيارات

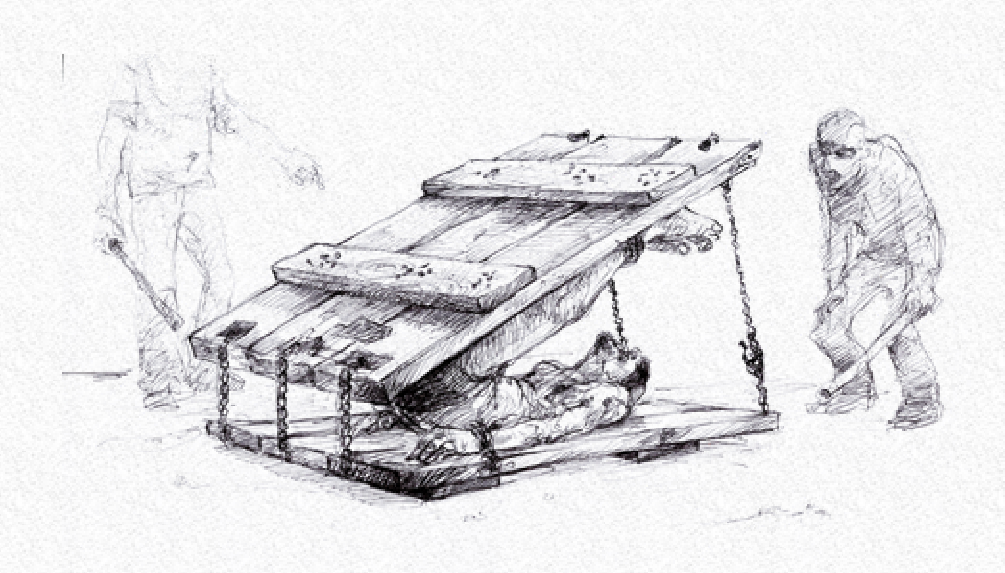
يذيع السجانون أسماء من وردتهم زيارة فيستعد السجين للخروج من المهجع. يضربونه على الباب حتى يسيل منه الدم، ثم يجرّونه إلى غرفة كبيرة بطول 15 م وعرض 10 م تقديراً، يُجمع فيها كل من وردت أسماؤهم للزيارة من كافة الأجنحة ويُرمون فوق بعضهم. في الغرفة حلاقان يمسك كل منهما بماكينة لإزالة شعور المعتقلين. ثم يخرج السجين إلى الزيارة يمسك به عسكري من اليمين وآخر من اليسار وثالث وراءه. يقف بمواجهة شبك ناعم (غربال) بينما يقف أهله وراء شبك آخر، وبين الشبكين يسير رقيب ليستمع إلى الأحاديث. قبل الزيارة يجري تنبيه السجناء إلى الكلام المسموح، وهو: "كيفكم؟ كيف صحتكم؟ أنا بخير وأموري تمام" وأشياء من هذا القبيل.
الأغراض التي يجلبها الأهل لا تُسلّم مباشرة إلى السجين بل لقسم خاص في السجن. توضع أغراض كل سجين في كيس يُكتب عليه اسمه، ثم يجري تفتيشها. في إحدى المرات اكتشفوا بعض الأخبار المكتوبة على الوجه الداخلي لإحدى قطع الملابس. وفضلاً عن ذلك يسرق السجانون معظم الأغراض، فلو أتى الأهل بعشر قطع من الملابس، مثلاً، تصل قطعة واحدة منها فقط للسجين. كان السجان يقول: "تكفيك قطعة واحدة"!
لم يكن السجانون يعرفون شيئاً اسمه غسيل الملابس. كانت الزيارات مرتان في الأسبوع، يومي الأحد والأربعاء، وفي كل مرة كانوا يأخذون من الملابس الجديدة المجلوبة للسجناء ويرمون تلك التي كانوا يرتدونها!
في أحد الأيام طُلب رنس للزيارة، وعاد "منتوفاً" يسيل الدم من فمه. رموه في المهجع وذهبوا. تهافتنا باتجاه البنطال لمعرفة الأخبار. سحب المطاطة فخرجت الرسالة. قرأها ثم ضمها إلى صدره. سألناه فأجاب أنه لا أخبار فيها، وأنها تحوي كلاماً خاصاً فقط.
أنا من الدورة التي تسبق دورة رنس بدورتين، وهذا يجعلني "جده" في العرف المتداول في الجيش السوري. وكانت علاقتي به طيبة جداً. سألته فقال: لا شيء. في العادة كنا نحفظ القرآن قبل المغرب. أذكر أننا يومها راجعنا لبعضنا سورة "الواقعة" شفوياً. ولما انتهينا أعدت سؤاله عن فحوى الرسالة.
في العادة كان من يخرج إلى الزيارة يعود ليقول للآخرين إن الأمور بخير وسنخرج من السجن، حتى لو لم يقل له أهله أي شيء من هذا الكلام، وذلك لرفع معنويات السجناء ولو بالكذب لمساعدتهم على مواجهة الإحباط الشديد الذي يعانونه. وكان رنس يفعل هذا دائماً. كان يقول إن السجناء يعانون من الضيق والضغط ولا تنقصهم الأخبار السيئة فوقها. ولذلك عندما يعود من الزيارة كان يزعم أنه أهله لمّحوا له أن النظام سيسقط والأسد سيرحل والمساجين سيخرجون جميعاً، والفرج قريب.

ألححت في سؤاله فأجاب: "يا جد... أنا لما اعتقلت كان عمر ابنتي فاطمة تسعة أشهر. وقد كتبت لي زوجتي اليوم أن فاطمة صارت تمشي، وأنها صارت تنادي والدي بكلمة بابا". وصارت دموع رنس تسيل. كان والده عميداً في إدارة الدفاع الجوي، وقد ربيت الطفلة في كنفه بعد سجن أبيها.
كان الموقف مؤثراً جداً. أخذت أواسيه بالكلام وفي الوقت نفسه تذكرت ولديّ، عمر وعلي. صرت أتذكر كيف كنت أصحبهما إلى الأرض ويسبحان في الساقية قرب البئر. ما الذي حل بهما الآن؟

المرض والمشفى

في أحد الأيام مرض رنس مرضاً شديداً. جاء طبيب السجن ليعاينه. تخيل أن الطبيب صار يضربه! لكمه فوقع اثنان من أسنانه ثم أمر بتحويله إلى المشفى بسبب إصابته بالسل أو الربو، لم أعد أذكر. نُقل إلى مشفى تشرين العسكري وبقينا في انتظاره عسى أن يحمل معه بعض الأخبار من الخارج. عندما عاد روى لنا ما حصل معه: "نُقل المرضى بسيارة مخصصة في الأصل لنقل القمامة. وعندما وصلنا أنزلونا أمام المشفى حتى جاء أحد العساكر وأعطى كلاً منا حبة أسبرين، ثم أركبونا في السيارة من جديد وأعادونا! ولم يتوقف الضرب في مشواري الذهاب والإياب".
في مرة ثانية ذهب أحد أبناء مهجعنا إلى المشفى وعندما عاد اكتشفنا كم نحن بخير! فقد أخبرنا أن الوضع في أجنحة أخرى أسوأ بكثير، إلى درجة أن أحد الذين نُقلوا معه إلى المشفى، بسيارة القمامة أيضاً، عثر في أرضها على قيء جاف خلّفه مريض سابق فأخذ يكشطه ويأكله لشدة ما يعاني من جوع!
كان الجرب قد أصاب عدداً من السجناء في أجنحة أخرى بسبب ظروف قلة النظافة. وكنا حتى ذلك الوقت في مأمن من هذا المرض الذي سيضرب السجن كله بعدها ويؤدي إلى موت الكثيرين. أثناء ذهاب رنس إلى المشفى أصيب بالعدوى من أحد المرضى الذين ذهبوا بصحبته، ونقل المرض إلينا. بعد يومين أو ثلاثة من عودته بدأ يحك، وخلال أيام قليلة أصبنا جميعاً بالجرب. صار واحدنا يحك جلده حتى ينزف، ثم ظهرت الخراجات المؤلمة. صار ألم الجرب يزيد. وعندما كنا نطلب من السجانين العلاج كانوا يضربوننا.
ورغم كل شيء حنق بعض زملائنا في المهجع على رنس وأخذوا يتناولونه باللوم والدعاء وكفّوا عن مجالسته وتناول الطعام معه! لكنه صبر وظل صامتاً أمام هذا الوضع الصعب. وبالتدريج أخذ جسده يضمحل حتى صار أشبه بهيكل عظمي.
في ظهر أحد الأيام وقع أرضاً. لم يبق فيه ما يتحرك سوى عيناه. عرفنا أنه في حالة احتضار. في صباح اليوم التالي أبلغنا السجان أنه توفي فقال "لفّوه ببطانية عسكرية". لففناه ووضعناه قرب الباب فنظر إليه السجان وقال: "لم يمت بعد. اتركوه هنا". وجاء عصراً مع زميله وسحبوه من أطراف البطانية.

شهادة معتصم عبد الساتر



أخذونا إلى الفرع 248 برسم الإيداع. كنا نسمع أن ذلك يستغرق يوماً أو اثنين قبل التحويل إلى سجن صيدنايا، لكننا أمضينا فيه شهراً وبضعة أيام. كانت أياماً شديدة القسوة إلى درجة أننا صرنا نحلم بالتحويل إلى صيدنايا، أو نتمنى العودة إلى الفرع 293 حيث كنا. صحيح أننا تعرضنا فيه للضرب والتحقيق إلا أن الاحتجاز في المنفردات دون أي كلمة كان أمراً صعباً للغاية. عندما أخرجونا في النهاية لم نكن نستطيع الرؤية بشكل طبيعي بسبب اعتياد عيوننا الظلام.

إلى صيدنايا

تحقق "حلمنا" أخيراً بالتحويل إلى صيدنايا. قيدونا بالكلبشات وسلسلونا في جنزير، كنا حوالي 30-25 شخصاً، واقتادونا إلى السيارة المغلقة (براد اللحمة) وكأننا غنم. طول الطريق ونحن نتمنى أن تحدث معجزة فتنقلب بنا السيارة ونموت أو نتمكن من الهرب، لكنها لم تحدث. كنا نسمع أصوات السيارات ونفكر كيف أن الناس يمارسون حياتهم الطبيعية.

وصلنا إلى صيدنايا. لم نر شيئاً من السجن ونحن في قلب البراد. حتى أنزلونا في ساحة ثم أصعدونا درجتين وأدخلونا إلى بهو كبير. أمرونا أن نحني رؤوسنا فلم نر ملامح أحد منهم. أجروا التفقد على الأسماء بالتوازي مع أضابيرنا المرفقة. أمرونا أن نخلع جميع ملابسنا ثم أخذوا بضربنا منذ حوالي الثانية عشرة ظهراً إلى قرابة الخامسة مساء ونحن عراة.

بعد ذلك صاروا يوزعوننا على مجموعات تضم كل منها 8-7 سجناء. أنزلونا حوالي 20 درجة في الظلام والأرض مبتلة وأصوات الضرب مسموعة. أعادوا بطحنا على الأرض وكرروا ضربنا ثم أدخلوا كل مجموعة إلى منفردة لا تتجاوز المترين طولاً و170 سم عرضاً، وفيها مرحاض صغير. بعدها أخذ السجان ينادي أسماءنا واحداً تلو الآخر، يسأل كلاً منا عن تهمته ويصفعه بشكل مدوّخ ثم يعاقبه بالفلقة التي تستمر حتى يفقد المرء سيطرته على جسده.

تركونا في المنفردات. لم نكن نعرف نظام السجن فظننا أننا سنقضي حياتنا المتبقية كلها هكذا. كان البرد شديداً والأرض مبتلة ولا توجد بطانيات. وكان الطعام قليلاً ولا يوجد ما نملأ به أمعاءنا سوى الماء. كان سجاننا يرمي لنا الطعام رمياً فيأكله من اشتد به الجوع. وكان يضربنا يومياً بحجة إصدار الأصوات أو دون حجة على الإطلاق.

في المهجع

في أواخر الشهر الثالث من عام 2012، بعد حوالي 11 يوماً، أخرجونا من المنفردات وصعدوا بنا درجات كثيرة ونحن في غاية الإنهاك، ووسط الضرب. وصلنا أخيراً إلى مهجع لا يحوي أي شيء. أدخلونا. ودون أن نرى وجوههم قالوا: "بتقعدوا هون وأكلكن بيوصل لعندكن. صوت ما في وهمس ما في". علمونا الوضعية التي يجب أن نتخذها عند دخول السجانين؛ وهي أن تجلس جاثياً ووجهك إلى الجدار ويداك خلف ظهرك. بعد قليل رمى أحدهم لنا بأربع صابونات وقال: "عرصات.. تحمموا". وبعد قليل رموا لكل منا بطانيتين عسكريتين كريهتي الرائحة جداً. تشارك كل اثنين بطانياتهم؛ واحدة على الأرض وثلاثة لنتغطى بها. بعد ما عانيناه في الأسفل شعرنا هنا أننا في الجنة!

في اليوم التالي وزعوا علينا الفطور، بيضة كاملة للشخص! وكمية كافية من الخبز. كان الغداء من البرغل الذي أشعرنا بالشبع بعد جوع طويل.

بعد عدة أيام دخلوا علينا فجأة وأشاعوا جواً من الرعب. طلبوا من الذين يرتدون ملابس عسكرية أن يخلعوها ورموها خارجاً، ثم ضربونا جميعاً بالدولاب. وصاروا يكررون هذا الأمر كل أسبوع.
عينوا العقيد السجين نضال الحاج علي رئيساً للمهجع، وكان عليه أن يقدم ثلاثة أسماء "مخالفين" يومياً، أو أن يتبرع اثنان أو ثلاثة لتلقي العقوبة التي يجب أن تكون يومية.
كان رئيس الجناح مساعداً شديد السمرة، طوله 170 سم وبجسم ممتلئ، أسميناه "الديري" ثم عرفنا أنه من منبج بريف حلب.
مرت الأيام وصرنا نتجرأ أن نتجمع في الزوايا ونتكلم همساً. وإن فتح أحد الشرّاقة علينا نلتفت فوراً إلى الحائط.
بعد مدة بدأ الطعام يسوء. وبعد أشهر من دخولنا المهجع أخذ التعامل معنا يصبح أشد. كما دفعت الظروف المحيطة إلى ظهور بعض الخلافات شديدة السخف بين المعتقلين.
دخلوا علينا ذات يوم وقالوا إنه بإمكاننا شراء المنظفات عبر ما يسمونه بلغة السجون السورية "الفاتورة"، أي أن ندفع نحن ثمنها المبالغ فيه من النقود التي نملكها في الأمانات. تبرعنا وصارت عندنا حتى فراشي الأسنان والمعجون. ثم سمحوا لنا بشراء "فاتورة" أدوية. كان أمراً جيداً أن نأخذ الأدوية بأنفسنا دون الحاجة إلى الطبيب الذي كنا نتشاءم من قدومه، فقد كان علينا أن نكون عراة تماماً عند دخوله. كانت هناك إمكانية للتسجيل للذهاب إلى المشفى لكننا لم نكن نجرؤ. في إحدى المرات ذهب أحدنا ولما عاد قال إنه أوقف في "نظارة" المشفى ثم أعطوه ظرفين من حبوب الالتهاب وظرفين من المسكن دون أن يعاينه أحد.
ورغم ذلك كله، تلك كانت مرحلة من "الدلال"!

الموت

صارت المياه تنقطع، أحياناً لسبعة أو ثمانية أيام متوالية، فصرنا نقننها. وبدأ الطعام يقل، وصار السجان يرميه علينا. أخذ السجناء يمرضون ويموتون بعد أن تراجعت مناعة أجسادهم.
في 2013 صار الضرب يومياً، وكان مبرحاً جداً، وصارت الدماء على الجدران. أول من استشهد أمامي كان خليل علوش من درعا، مقدم في الجيش بجسم رياضي. دخلوا في إحدى المرات فتكلم. ضربوه فكسروا كتفه ويده. في الصباح نقلوه إلى المشفى حيث تلقى ضرباً على كليتيه أعاده أسوأ مما ذهب. ورغم مرضه البادي كانوا يدخلون ليضربونه. بعد عودته من المشفى بيومين أو ثلاثة مات.
مرض الملازم أول عبد العزيز سويد من كفرنبل، وكان رئيس مهجعنا الآن. أخذ يهلوس لمدة شهر وأثناء ذلك كانوا يضربونه. كان المرضى يتعرضون الضرب أكثر من الباقين بسبب ما يصدر عنهم من "مخالفات"! كان عبد العزيز طويلاً ذا جسم جيد قبل أن يضمحل. في هذه المرحلة كان أثقلنا وزناً لا يتجاوز 50 كيلوغراماً. عندما مات وضعوه إلى جانبي. كانوا قد سحبوا البطانيات واللباس. كنا عراة بالكامل. وشعرت بالانهيار.
انتشر الجرب وأخذنا بالحك حتى ينزف الدم. اشتد عليّ الجرب لدرجة أنني تجرأت وأجبت عندما سأل الرقيب عمّن أصيب بالجرب بيننا. أريته جسمي المحفور من شدة الحك وطلبت دواء فأحضر لي علبتين من البنزوات وعشرين حبة التهاب. سألني إن كنت أعرف طريقة استخدامها فقلت لا. أرشد أحد زملائنا المساجين إلى أسلوب التدليك المترافق مع الاستحمام بالماء البارد. قلت له إنني لن أنسى له هذا المعروف. صرنا نطلب منه الخبز

والأدوية. وكان يعاملنا بشكل جيد نسبياً. بعد مضيّ شهر لم نعد نسمع صوته وعلمنا أنه نقل.
بعد مدة أصابتني الهلاوس أنا الآخر ولم أعد أميّز من حولي. اعتنى بي محمد قسوم رحمه الله، سمعت بعد خروجي من السجن أنه استشهد.
في أحد الأيام نادوا باسم أحمد خالد طرية وسألوه من أين هو فأجاب من الرستن. أمروه بالبصم على ورقة لا يسمحون له بقراءتها. كان هذا السلوك مألوفاً ولم نكن نعرف ما تحويه هذه الأوراق. كانت وجوهنا نحن المتبقين إلى الحائط ولم نعرف أنه ضربوه. بعد أن يخرجوا بدقائق تستطيع الالتفات ثانية وفق التعليمات. عندما استدرنا وجدناه على الأرض فظننا أنه متعب أو مريض، لكنه كان ميتاً.

في المحكمة

بعد أن دخلنا بحوالي 3 أشهر بدأ العرض على المحاكم والزيارات. كانت مدة الزيارة 3 دقائق. وكنا نسأل العائد منها ونؤول أي كلمة قالها الأهل بقرب الإفراج عنا أو سقوط السجن بيد مقاتلي الجيش الحر.
أما الذين يعودون من المحكمة فيكونون قد تعرضوا لضرب شديد، كما كانوا يحملون معهم درجات أشد من الجرب الذي كان منتشراً في سجن الشرطة العسكرية في القابون.
ظللت لمدة سنة ونصف مخفياً قسرياً لا أحد يعرف عني أي شيء، حتى عرضت على المحكمة. نمت ليلة هناك. كان طول الغرفة خمسة أمتار وعرضها أربعة تقريباً، وكانت تحوي حوالي 200 موقوف يتكومون فوق بعضهم ويتناقلون الجرب والقمل.
في اليوم التالي أُدخلت على القاضي الذي أمر برفع الطماشة عن عيني ثم سألني عن التهم الإحدى عشرة الموجّهة لي فأنكرتها كلها. قال: "انقلع ولاك" ففعلت.

الزيارة

بعد شهر جاءتني زيارة لأول مرة. كنت قبلها أحلم بالزيارة وأمثّل أمام زملائي في المهجع كيف أمشي إلى الباب للذهاب إليها. كانت الزيارات في أيام الأحد والثلاثاء من كل أسبوع. ذات ثلاثاء دخل السجان ونادى اسمي. قال "ارفع كنزتك لتغطي رأسك" ففعلت. "امشي ولاك" فمشيت. لمّوا حوالي 6 أو سبع سجناء من الأجنحة لديهم زيارات وأوقفونا في بهو كبير تلتقي عنده الأجنحة. عرفت الآن أننا في الطابق الثالث.
كانت زيارتي في 7/7/2013. أنزلني الرقيب "الآدمي" نفسه. اكتشفت حينها أنه نقل إلى جناح آخر لا خارج السجن. قبل الزيارة يحلقون للسجناء. جُرحت شفتي أثناء ذلك وتلقيت صفعة. أدخلونا إلى صالة كبيرة جداً بالانتظار. كان عليك أن تبقى جاثياً وكلما هممت بالجلوس على الأرض تأتيك الضربة أو الركلة لا تدري ممن. استمر الوضع كذلك من العاشرة صباحاً وحتى الرابعة عصراً. شعرت أنني أموت. نودي على اسمي في نهاية الأمر وقيل لي أن أعيد الكنزة إلى وضعها الطبيعي.
في غرفة الزيارة أمامك شبك معدني، وآخر أمام الزائرين، وبينهما ممر صغير يمشي فيه أحد الحراس، بينما يقف آخر وراءك. عندما رأيت أسرتي أخذت بالبكاء بحرارة. شاهدت زوجتي وبنتيّ؛ سنا ونهيدة. أحب هذا المشهد كثيراً وأحب استرجاعه بشغف، رغم أنه يدفعني إلى البكاء في كل مرة. لم أعرف البنتين على طول المدة التي تركتهما فيها ونموهما. هل عرفت ما الذي دفعني إلى رفض أن أتحدث أول مرة؟

ظننت أن ابنتي الصغرى هي الكبيرة كما تركتها، أما الكبرى فلم أعرف من هذه! صرت أرجو الصغيرة أن تكلمني قائلاً لها: "أنا بابا يا حبيبتي يا روحي" لكنها لم ترد. كان عمرها عدة أشهر عندما تركتها. كان الإرهاق الشديد يبدو على وجه زوجتي.
انتهت الدقائق الثلاث المخصصة. ودعتهم وأنا أبكي فسألني أحد السجانين: "ليش عم تبكي يا عرصة؟"، وأخذ بضربي!
بعد الزيارة أعطوني كيساً يحوي منشفة وغيارين داخليين فقط. كان من المستحيل أن تجلب العائلة أغراضاً قليلة كهذه بعد كل هذه المدة. علمت في ما بعد أنهم أحضروا لي ثلاث بيجامات من نوعيات جيدة وكمية كبيرة من الملابس الداخلية وأغراضاً أخرى. لقد أخذها "أولاد الحرام".
صعدت الطوابق وأنا متعب. كنت قد تناسيت أسرتي قليلاً خلال المدة الماضية، أما الآن فصرت أتخيلهم وأنتظر الزيارة التالية التي قال بعض زملائنا في المهجع إنها ستتاح لأي سجين كل ثلاثة أشهر. صرت أعدّ الأيام بل الساعات. مرّت هذه الشهور وكأنها سنوات.

الإعدام والعقوبات
في هذه المرحة تفشى الجرب وكان الطعام قليلاً وزاد الموت. صار السجانون يذيعون أسماء المنشقين ويقتادونهم إلى مكان مجهول، للإعدام بالتأكيد. نقص عددنا فنقلونا إلى مهجع آخر. أصبح أحدنا مسؤولاً عن توزيع المياه كي تكفي الجميع. ونظمنا دوراً نتناوب فيه اثنين يومياً "سخرة" لتنظيف المهجع ومسحه إن توفر الماء. ثم شكلنا "محكمة" لحل المشكلات التي أخذت تحصل بيننا نتيجة قلة الطعام والشراب. كان السجناء يتبادلون الضرب أحياناً، ولو وصلت أصواتهم إلى السجان كان يضرب جميع أفراد المهجع لليلة كاملة، أو قد ينزلنا إلى المنفردات.
تزايدت عقوبات السجانين بسبب ودون سبب. كان الحرمان من البطانيات متكرراً. وقد يدخل السجان فيأمر رئيس المهجع أن يسكب علينا الماء البارد، أو يصدر إيعازه: "الذراعين جانباً رفع" فنبقى هكذا ليوم أو يومين ربما، وأثناء ذلك يحضرون الطعام كالعادة ويضعونه وسط المهجع دون أن يسمحوا لنا أن نقربه!!

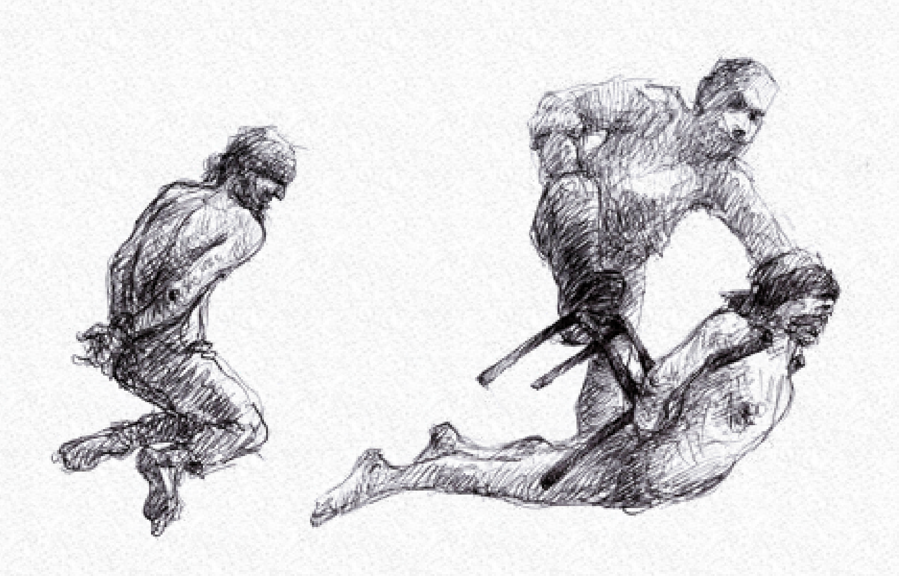
كيف كنا نعيش
عانينا من نقص شديد في السكريات فصارت الحلويات تراودنا أثناء النوم. منذ خرجت وأنا مغرم بالأكل!
سأحدثك كيف كنا "نطبخ". لا تذهب بأفكارك بعيداً فليست لدينا أي إمكانية للطبخ المعروف. كنا نستعيض عن ذلك بالخيال. نتجمع ثلاثة أو أربعة فنتهامس عن طريقة طبخ الرز، أو البامية، وأحياناً الحلويات!
كنا نصلي جماعة رغم أن ذلك ممنوع. في أسفل الباب شبك معدني مخرّم وكان أحدنا يجلس للمراقبة وتنبيهنا إن جاء أحد. في إحدى المرات أحس السجانون أن أربعة يصلون جماعة فانهالوا عليهم بضرب لم يستطيعوا بعده الوقوف لمدة شهرين، كما احتجزوهم في حمام المهجع لأيام.
لم نكن نعرف الوقت، فلا أحد منا يحمل ساعة بالطبع. كنا نقدّر وقت صلاة الفجر من يقظة العصافير.
صارت آثار الدماء على الجدران. كنا نضمد جراح بعضنا بخرقة قذرة إن وجدت. لم يعودوا يحضرون أي نوع من الدواء. وصارت معاملتهم لنا سيئة جداً. لم يعد أحد منا يجرؤ على التطوع كرئيس للمهجع لشدة ما يتلقى من ضرب وركل، فتناوبنا على هذه المهمة.
نشأت بيننا عمليات مقايضة، فمثلاً لو ملكت نصف رغيف زائد عن حاجتي كنت ربما أشتري به زيتوناً من سجين آخر. فصاروا يفتشون المهجع وإن وجدوا زيتوناً كانوا يرمونه في الخارج ويقولون: "عم توفروا؟ يعني الأكل اللي عم يجيكم زيادة عليكم؟".

صاروا يحرمون بعض المهاجع من الطعام كيفياً أو ليوفروا على أنفسهم عناء التوزيع. حُرمنا في مرات، وفي أحد الأيام أعطونا كل حصة الجناح، المكون من عشرة مهاجع، وحرموا الآخرين. على كل حال كان الطعام المخصص للجناح يكفي مهجعاً واحداً.
خصصنا اثنين منا يومياً لتوزيع الطعام. وكانت الخلافات تدور حول حجم الحصص.
في أيام رمضان أو العيد كنت تستلقي على المساحة المخصصة لك، والتي تتراوح بين البلاطة وربع والبلاطة ونصف حسب العدد؛ فترى من على يمينك يبكي. تلتفت إلى الجانب الأيسر فترى الآخر يبكي أيضاً. فنهمس "يا الله"!
جمعنا عجو الزيتون وصرنا نلعب الضامة والشطرنج بمربعات رسمناها على قميص داكن. فاجأنا السجانون مرة ورأوا ذلك فضربونا حتى الموت.
بعد دخولنا إلى السجن بشهرين أو ثلاثة صاروا يأخذوننا إلى الحمام داخل الجناح عراة. هناك يُدخلون كل سبعة أو ثمانية سجناء إلى إحدى غرف الحمام سوياً ويفتحون عليهم ماء مغلياً يسلخ الجلد. وفي طريق الذهاب والعودة لا يتوقف الضرب بينما كنا ننزلق بسبب ضعف أجسادنا ووجود المياه على الأرض ونحن حفاة. من يقع يتناولونه بالضرب بالأنابيب البلاستيكية الخضراء. كنا نعود من الحمام جرحى.

الزيارة الثانية

مرت الشهور الثلاثة وأذيع اسمي للزيارة في يوم أحد. أخذوني، بعد أن ضربوني بشدة طبعاً. دخلت إلى الغرفة فرأيت أبي وشقيقتي وزوجتي وبنتيّ. كان والدي قد قارب الثمانين، وطلب من رئيس الجناح أن يعتني بي لأنني بريء فأجابه: "تكرم يا حجي". كانوا يُظهرون اللطف أمام الناس. كانت الزيارة تستلزم من عائلتي الإقامة لعشرين يوماً في دمشق بين تقديم الطلب ومتابعته لدى الجهات المختلفة حتى الموافقة عليه، وكانوا يستأجرون منزلاً لهذه المدة أو يقيمون عند بعض الأقارب. كان ذلك مرهقاً جداً لهم ومكلفاً. وكل ذلك مقابل ثلاثة دقائق فقط.
سألتني زوجتي: "لماذا ترتدي ملابس الزيارة السابقة نفسها؟!". لم أدر بم أجيبها فقلت: "هيك أحسن". التفتتْ إلى السجان وسألته: "أين الملابس التي أحضرناها له في المرة الماضية؟ لماذا لم تعطوها له؟". يا للورطة! استدار السجان محوّلاً السؤال لي فأجبت بسرعة: "ثيابي فوق، ولكن ما أرتديه الآن أريح لي"!
كلفني هذا الحديث ضرباً أشبه بالموت الأحمر بعد الزيارة وهم يقولون: "بدك تياب جديدة يا ابن العرصة؟!".
هذه المرة أعطوني كيس الأغراض وقد سرقوا الملابس المشتراة حديثاً فقط، وتركوا ما أحضرته زوجتي من ملابسي من المنزل.
أصبت بالصداع الآن. كم يتحمل الإنسان! كيف مر علينا كل هذا؟!!!

شهادة أشرف الحسين



اعتقلونا من الكلية الحربية واقتادونا للتحقيق إلى الفرع 293 بدمشق، الذي بقينا فيه أكثر من مائة يوم، ثم حولونا إلى سجن صيدنايا.

عند وصولنا أدخلونا إلى بهو يشعرك بالرعب الشديد بمجرد دخوله، بسبب الأجساد الغارقة في دمها على الأرض، مختلطاً بدماء قديمة متجمدة، تماماً كأنك تدخل إلى مسلخ. سجلوا أسماءنا وأمرونا بخلع ملابسنا لنتعرض لحفلة طويلة من الضرب، ثم أدخلونا إلى الزنازين التي يسمونها منفردات ولكنهم يحشرون فيها العدد الذي يريدونه منا. في زنزانتنا كان السقف يدلف بغزارة وكأنك جالس تحت المطر في الهواء الطلق. أعتقد أن هذا مقصود. قضينا هنا خمسة عشر يوماً نتعرض للضرب بشكل متواتر مع كل وجبة. صرنا نتمنى ألا يصل إلينا الطعام لشدة العذاب الذي تلقيناه والإهانات المرافقة.

عندما صعدوا بنا إلى المهاجع شعرنا أننا انتقلنا من النار إلى الجنة. هكذا ظننا على الأقل، فقد صرنا قدماء هنا ولن يضربونا أو يهينوننا، لقد أصبحنا سجناء فقط. للأسف لم يكن هذا صحيحاً، فقد كانوا يضربوننا بشكل متكرر. بالنسبة للأكل كانوا أحياناً يتركون الطعام خارجاً حتى اليوم التالي، وأحياناً يرمونه على أرض المهجع، وأحياناً يسكبونه على المساجين. كانوا يحضرون الوجبات الثلاثة سوياً، وكانت حصة أحدنا من وجبات اليوم كله لا تشبع طفلاً صغيراً.

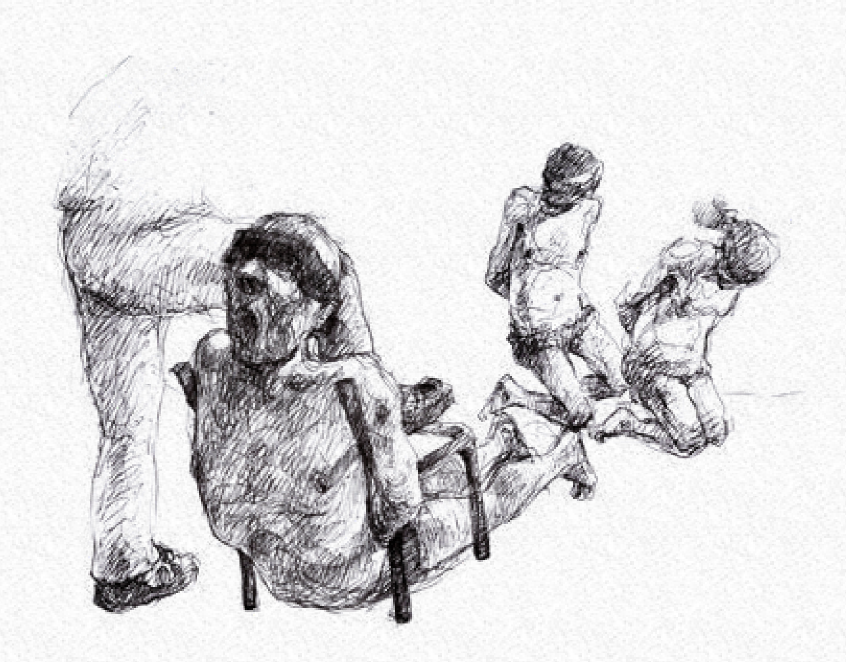
في أيام الزيارات فكان كل منا يأخذ زاوية ويدعو ألا تأتيه زيارة، وحتى أننا كنا نتبادل التوصيات، في حال الإفراج عن أي منا، أن يزور أهالي الآخرين لطمأنتهم عنا وأن يطلب منهم عدم زيارة ابنهم السجين إن أرادوا رؤيته حياً ذات يوم، فقد يُقتل نتيجة هذه الزيارة. لأن السجانين يأخذونه من المهجع ضرباً ويعيدونه ضرباً. أحد رفاقي، ابن دعوتي كما نقول، أخذوه يوماً لتلقي زيارة، ولما أعادوه سحلاً تلصصت فرأيتهم يضربونه ببوري معدني مربع طوله حوالي متر ونصف صاروا يستخدمونه في تعذيبنا وكنا نسميه "بوري الموت"، فقد كان قاتلاً بضربتين أو ثلاث فقط. في البداية كانوا يضربوننا بكبل كهربائي يسمى "الكبل الرباعي" لأنه مجدول مرتين فيصير رباعياً، ثم تطورت الأمور إلى أنبوب التمديدات الأخضر الثخين. كان يمكن لهذه الأدوات أن تقتل أيضاً، لأن الضرب كان عشوائياً ولم يكونوا يأبهون على أي مكان من الجسم تقع ضرباتهم، الرأس أو البطن أو الرجلين او اليدين، وكأن أمامك كتلة صوف عليك أن تنفضها وأنت مغمض العينين. وكذلك الضرب بالبوط العسكري. الدعس بالبوط أصعب من البوري المعدني حتى، فهو يؤدي إلى الموت المحتم لو كان على البطن.

نتيجة قلة الطعام ونقص التعرض للشمس انتشرت الأمراض. وتقريباً كان أي مرض يؤدي إلى الموت، حتى الكريب أو ظهور حبة بسيطة في الجسم، بسبب انهيار مناعة أجسادنا وانعدام وجود الأدوية. كان الطبيب يزورنا كل يومين أو ثلاثة، وحينها كانوا يسألوننا: "مين مرضان". لم يكن أحد يجرؤ على رفع يده بسبب الخوف من الطبيب الذي كنا نسميه "الجزار"، لأن كل من كان يرفع يده ليبلغ عن إصابته بمرض كان الطبيب يضربه حتى الموت!

في أحد أيام الزيارات جاؤوا ليأخذوا الأسماء المطلوبة. فتح السجان الشراقة علينا ونادى أحد الأسماء. كنا في الوضعية "جاثياً" ووجوهنا إلى الحائط، وكان المخوّل بالإجابة هو رئيس المهجع الذي لم يسمع الاسم جيداً فقال طالباً الإعادة: "نعم سيدي؟". لم يفهم السجان أن رئيس المهجع يستفسر، بل ظن أن رد بالإيجاب أن السجين المطلوب موجود هنا، ففتح الباب لاصطحابه. وهنا أعاد زميلنا رئيس المهجع السؤال وسمع الاسم بشكل جيد وقال إنه ليس في مهجعنا. استشاط السجان غضباً واتهم رئيس المهجع بالاستهزاء به، فبطحه على ظهره أرضاً ونادى

أربعة منا أمرهم أن يمسك كل منهم بأحد أطراف رئيس المهجع، يديه ورجليه، ثم هددهم أن أي واحد منهم يفلته سيحل محله، وصار يضربه ويقفز ويهوي على صدره، حتى مات. ثم أمر بصب الماء عليه ليتأكد من وفاته. حين دلقوا الماء لم يتحرك الرجل، أو أن الجثة ظلت ساكنة بالأحرى، فأمر برميه في الحمام وخرج. بعد قليل تفقدنا زميلنا فوجدناه حياً لا يزال! غيّرنا ملابسه ومسحنا دمه واعتنينا به، لكن صدره انتفخ في الليلة نفسها ومات أخيراً. أكثر الحوادث التي جرت معنا مأساوية تتعلق بالحلاقة. عندما كانوا يريدوننا أن نحلق كانوا يرمون إلينا عادة بثلاث أو أربع ماكينات حلاقة موصولة بشريط واحد، نستعملها ويأخذونها عندما ننتهي فيعطونها لسجناء المهجع التالي. في أحد الأيام صدر الأمر: "الكل يحلق" ولم تصل الماكينات. أبلغ رؤساء المهاجع السجانين بهذا فأتاهم الأمر مجدداً: "دبروا حالكن"! وكيف ندبّر حالنا؟!! اعتبر البعض أن هذا مجرد كلام لا يترتب عليه شيء لأن الطلب غير منطقي، فيما قلق آخرون لأن هذا الاحتمال غير مضمون. كسرنا بعض السيراميك من الحمام وأخذنا نقص شعور بعضنا فخففناها قليلاً بقدر ما استطعنا. في اليوم التالي جاؤوا ورأوا أننا لم نحلق فأخرجوا رؤساء المهاجع في جناحنا وعاقبوهم بالضرب حتى قتل منهم اثنان أو ثلاثة. ثم كرروا الأمر: "بكرة بتكون كل العالم حالقة شعرها"، وخرجوا. كان التهديد جاداً إذاً!! ولكن ما العمل الآن؟ أخذنا ننسل الخيوط من البطانيات ومن ليفة الجلي وننتف شعورنا ولحانا وشواربنا!!

شهادة عماد الدين شحود



القاضي نايف الرفاعي

تعرّفت إلى القاضي الرفاعي في البناء الأحمر بسجن صيدنايا عام 2012، وبقينا سوياً حتى مقتله في نيسان 2014. كانت أخلاقه ممتازة وكان محترماً جداً من عائلة كريمة من درعا. سُرّح والده فيصل من المخابرات الخارجية عام 1975. نايف من مواليد 1974 مثلي، ولذلك كنا مقرّبين. وحسب ما روى لي أنه حاز الثانوية العامة وسافر للعمل في دولة الإمارات. ثم عاد ودرس الحقوق ثم تقدم للعمل في القضاء العسكري. زوجته مدرّسة لغة إنكليزية في مدارس داريا، اسمها هند الحامد، من نازحي الجولان، وكان شقيقها فراس رئيساً لفرع أمن الدولة بحمص. ولهما ابنتان، جوليا ونورما. كان منزله في صحنايا، وقد استلم من إدارة القضاء العسكري سيارة جيب واز بحكم عمله.
لم يميزوه إيجابياً في السجن، بل ربما تعرض للضرب أكثر من سواه. كما سُجنت أخته لدى المخابرات الجوية بتهمة تهريب شاب مطلوب من درعا.
كان مع الثورة قلباً وقالباً. وكان متهماً بالتعامل مع الثوار بدمشق وتسريب أوراق سرية تتضمن أحكاماً بالإعدام أصدرها القاضي محمد كنجو حسن رئيس المحكمة الميدانية، وهو من خربة المعزة التابعة لبانياس. كما اتهم الرفاعي بتسريب عناوين هذا الأخير مما دفعه إلى الإقامة في نادي الفروسية بالديماس ليظل في مأمن. شملت التهمة ثلاثة قضاة وقتها، أحدهم نايف، والثاني نمر النمّور من قدسيا الذي تمكن من الفرار قبل القبض عليه، وثالث لم أعد أذكر اسمه. طُلب نايف إلى المحكمة مرة واحدة فقط في شهر تشرين الأول 2013. وهناك حاكمه تلميذه سامر معلا، وهو صهر ضابط الأمن الشهير اللواء عبد الفتاح قدسية من ابنته فتون، كما أخبرني الرفاعي نفسه.
بعد الزيارة الأخيرة التي تلقاها من زوجته أعاده عسكري يدعى عيسى محمد، من صافيتا، أعتقد أنه قتل وحده حوالي 1000 سجين. أدخله إلى المهجع وأجلسه أرضاً وأخذ يضربه ببورية من الحديد على معدته وخرج. بعد خمس دقائق بدأ القاضي ينزف من فمه ثم أصيب بالإغماء. كان معنا طالب في السنة الثانية بكلية الطب اسمه محمد القاسم، سيموت لاحقاً. سألته فقال إن هذه أعراض نزيف في المعدة. كان نايف في السابق ضخماً ممتلئ الجسم، طوله حوالي 190 سم، لكنه فقد الكثير من وزنه نتيجة الجوع والمرض والهم. كان مصاباً بمرض قلب ويتناول نوعين من الدواء أحدهما مميع للدم. كانوا يعطونه العلاج في البداية ثم قطعوه.
أثناء النزيف لم نكن نملك سوى الماء فغسلنا وجهه وفمه. أطعمته قطعة برتقال فتقيأها وتوفي. رحمه الله.

الوضع الطبي

إذا سجّلت أنك مريض فقد يعني هذا نهايتك، بسبب الضرب الذي تتعرض له ذهاباً وإياباً في الطريق إلى مشفى تشرين العسكري، وحتى من الطبيب. عندما يصحبك السجانون يعطونك رقماً وتمنع من ذكر اسمك. في إحدى المرّات سجلت أني مريض فأعطوني الرقم 2529. كنا حوالي 30 محالاً إلى المشفى، وعندما وصلنا كان أربعة منا قد توفوا. في اليوم التالي أخذوني لوضع جثث من قضوا في المشفى في أكياس. كانوا أكثر من 15 قتلوا على يد الشبيحة والأطباء. أعتقد أن عدد الذين لاقوا حتفهم في هذا المشفى أكثر من الذين ماتوا في سجن صيدنايا!



شهادة منال الرفاعي

اليوم 22 آذار. في مثل هذا التاريخ من عام 2012 اعتقلوا أخي نايف. كان في منزلنا. ودّعني أنا وأمي وابنتي وقال إنه سيراجع الفرع الذي استدعاه ليعرف ما يريدون منه، بعدما حصل على ضمانات أن الموضوع مجرد "سؤال وجواب"، ويعود إلى منزله. حاولنا معه كثيراً ألا يذهب. كنت قد رتبت له، بالتعاون مع ضباط منشقين، أمر الخروج إلى الأردن، ولكنه رفض.

ذهب إلى فرع الدوريات بالكسوة. كنا نتصل به بشكل متواتر وكان يرد. في التاسعة مساء صار هاتفه خارج التغطية. اشتعلت النار في قلوبنا ولم نعد نعرف عنه شيئاً.

كانت أول زيارة له بعد اعتقاله بحوالي سبعة أشهر، أمّنها أخي الثاني سامر عن طريق إحدى الشخصيات النافذة. ذهبت أمي وسامر وقتها. كان قد نحف قليلاً لكن وضعه كان لا يزال مقبولاً. استطاعت أمي أن تؤثر على أحد الحراس ففتح الشبك وحضنته. همس في أذنها بشيء لم تلتقطه بسبب شدة بكائها.

عبر الشخص نفسه الذي كان أخي سامر قد توسّطه سابقاً استطعنا الحصول على إذن ثان بالزيارة. سررت أنني سأراه أخيراً. اشتريت له بعض الأغراض. قياسات متعددة من البيجامات والملابس الداخلية، فأنا لا أعرف الآن جسمه، لكن ما لن يستخدمه سيحتاجه معتقل آخر. اخترت الأنسجة الصوفية لتبعث الدفء، والألوان الداكنة ليتمكنوا من غسيلها.

في 27 آذار 2014 وضّبنا الأغراض وخرجنا باكراً، أمي وسامر وأنا. كانا يحاولان أن يعدّاني نفسياً لما سأراه، ويخبراني أنه سيكون نحيفاً ومختلفاً عن الشخص الذي أعرفه، وأن عليّ ألا أُصدَم. حاولت أن أرسم في ذهني صورته بناء على هذا الكلام، لكني لم أتخيل إطلاقاً الذي رأيته، فقد كان أسوأ من أشد مخاوفي.

عندما وصلنا إلى السجن كنت أحس أن الجبال تصرخ. كان الهواء يهب بارداً ورغم ذلك يلفك الشعور بالاختناق. قحط، جفاف، مكان موحش. جمعونا في باحة، كل الأهالي، وعيوننا تطير إلى الشبابيك؛ ابني وراء أي منها؟!! كانت وجوه العساكر تقطر سواداً، وكنت أفكر: هؤلاء من يحيطون بأخي؟

كان أمراً مؤلماً للغاية، ومتعباً بالذات لأمي المتقدمة في السن بلا كرسيٍّ تجلس عليه. بالكاد استطاعت الجلوس على طرف حجَرة. مرّ وقت طويل ونحن بالانتظار، فأخرجتُ إحدى قطع الملابس التي جلبتها لأخي ولبستها. قلت عسى أن يشمّ رائحة أحد من أهله فيها!

نادوا على الأهالي أن يدخلوا. بعد طول جلوس على طرف الحجر الواطئ لم تتمكن أمي من النهوض مباشرة فقال لها أحد الحراس: "خلص خلص خليكي!... إذا مانك مستعجلة لتشوفي ابنك ارجعي عالبيت!". قلنا له: "طوّل بالك... مرة كبيرة وبالزور عم تتحرك... نشفوا رجليها من القعدة. طوّل بالك عم نساعدها".

أنهضنا أمي وأدخلونا إلى صالة كبيرة تشبه صفاً مدرسياً؛ فيها مقاعد ولوح وشبابيك مكسورة. وبدأوا بتفتيش الأغراض ليحددوا المسموح منها والممنوع. قلنا لأنفسنا إن أي شيءٍ يصل إليه سيكون جيداً.

طال الوقت هنا أيضاً. في الساحة خارجاً قضينا حوالي ساعتين، أو ربما أنني قدّرت ذلك لأنني شعرت أن الزمن يمرّ ببطء. وفي الداخل انتظرنا ساعتين أيضاً.

ما لفت نظري أن الحراس كانوا يصحبون أناساً منا، نحن الأهالي، ويعودون بهم بسرعة وهم يبكون! صرت أسأل نفسي إلى أين يأخذونهم هذا المشوار القصير؟ ولماذا يرجعون باكين؟!

جاء دورنا فنادوا علينا. كان سامر يسند أمي التي لا تستطيع أن تسير بسرعة وتصعد الدرج، أما أنا فكنت أقفز درجتين درجتين عسى أن أرى أخي لمدة أطول من الدقائق الأربعة المقررة.

دخلت إلى مكان، على اليمين شبك مقسوم إلى ثلاثة أقسام. وراء كل شبك شخص، لكنهم جميعاً كانوا غرباء. ناداني أحد الحراس لأسلّم الأغراض التي معي عنده في صدر الغرفة. قلت: "ولكن أخي ليس هنا!". أخذ مني الأغراض

وقال "روحي لهنيك". التفتُّ إلى الخلف فرأيت أمي تقف وراء الشبك الثاني. ذهبت إليها دون أن أقتنع، فقد تفحصت السجناء منذ قليل ولم يكن نايف بينهم! تفرّست في الواقف وراء الشبك فلم أعرفه، التفتُّ إلى أمي فوجدتها تبكي! أعدت النظر إليه من جديد: من هذا؟! ما بها أمي؟ هل جنّت؟ كانت تقول: "كيفك يا أمي؟"... قلت لها: "هاد مو أخي! مع مين عم تحكي أنت؟!".

فجأة... أحسست أن الأرض خسفت بي والسماء انطبقت عليّ! شعور مريع ذاك الذي جاءني وأنا أقلّب النظر بين أمي و"أخي". من المستحيل ألا يعرف المرء أخاه!

كان هزيلاً جداً. شعره يشبه شعر الأطفال أول ولادتهم، شيئاً كالوبر، كالشعر الواهي على بطن القطط! في مقدمة فمه يبدو فراغ خلّفه سنٌّ قد سقط. وعيونه تحملق في السقف! لم يكن ينظر إلينا، لم يكن معنا، كان في عالم آخر! ويداه وراء ظهره.

نظرت إليه. لم يكن فيه من نايف الذي أعرفه أي شيء! ولا أي شبه! لم تغادرني القناعة بأنه ليس أخي وأن أمي تاهت وأنها تحادث شخصاً غريباً. حاولت كثيراً أن أنظر إليه كأخي أو أن أحادثه فلم أستطع إطلاقاً.

فالتفت هو إليّ وسألني عن ابنتي داليا! إنه هو! أخي!

كان جوابه على كل أسئلة أمي وأخي سامر هو: "الحمد لله".

"شبك؟"...

"الحمد لله"...

"شو صاير فيك؟"...

"الحمد لله"...

"لك شو الحمد لله؟!!"...

يسأله أخي: "شبك أخي؟ شو صاير معك؟"

فيجيب: "الحمد لله... الحمد لله".

سألته أمي: "شبك ابني؟ ليش إيديك ورا ضهرك؟ إيدك مقطوعة شي؟" فصاح به الحارس: "مد إيديك خليها تشوفن!". ببطء وتثاقل استطاع أخي أن يرفع يديه من وراء ظهره ويمدّهما ثم أعادهما إلى الخلف. كم عذّبوه حتى وصل إلى هذه الحال! كم كسروه! أولاد الكلب!!

الزيارة التي استمرت لأربع دقائق فقط كانت دهراً... دهراً من العذاب والقهر. عندما استدار ليذهب لاحظت أن بنطاله يسحل عن جسمه ولم تكن لديه القدرة على رفعه. شعرت أن رجليه حبلان ذائبان. وكنت أتخيل كم سيضربونه الآن، لأني سمعت أنهم يضربون المعتقل إثر الزيارة.

عندما خرجنا قالت أمي: "أخوكن مو مطوّل... لاقوا أي طريقة لتطالعوه!". لم أترك باباً لم أطرقه، ولا صوتاً يمكن أن يصل، ولا محاولة يمكن تجريبها.

بعد شهر تماماً، في 27 نيسان، استشهد. ارتاح. أنا ارتحت! لأنه لم يعد بين أيديهم الآن، ولم يستمر في المعاناة التي كان فيها.

لكن وجعه ما زال يحرقنا، وطالما أن من قتله ما زال يقتل سواه، ولم يشعر بالذنب الذي فعله ولا كيف جرحنا ودمّر حياتنا. لا أنا ولا أمي يمكن أن نستعيد حياتنا السابقة. تغيرت حياتنا بعد هذه الدقائق الأربع. تغيرت بعدما رأينا كم قُهر أخي وتألم وظُلم.

في وجه من نصرخ؟ لمن نشكو؟ إذا كانوا فعلوا هذا بقاض يمثل العدل!
علمنا باستشهاده في 6 أيار، عن طريق الشخص نفسه الذي أمّن لنا الزيارة. اتصل بأخي وقال له: "يمكن أخوك فيه شي. روح اسأل عنه بالشرطة العسكرية". عندما ذهب سامر وسألهم: "صحيح أخي توفى؟" اهتموا فقط بمعرفة كيفية وصول الخبر إليه! وفي النهاية قالوا له: "روح روح... هاد مات من تسعة أيام ودفنّاه". بهذه البساطة! قالوا إنه كان مريضاً بالسل.
في عام 2015 استطاع بعض المعتقلين، الذين خرجوا نتيجة عفو، التواصل معي كما كان أخي قد أوصاهم. فرأيتهم وحكوا لي ما حصل له في السجن بالتفصيل.
الأهم أنهم قالوا لي ماذا همس في أذن أمي في الزيارة الأولى. كانت تلك حرقة في قلبها لأنها لم تستطع سماع كلامه ذلك اليوم. كان قد قال: "يا جبل ما يهزّك ريح".
صحيح أنهم كسروا الجبل ولكن يكفي أنه دخل السجن مؤمناً بفكرة الحرية، واستشهد وغادر إلى ربه وهو مؤمن بها، ولا أعتقد أنه ندم يوماً على خياره.
بدأنا بتجهيز مراسم العزاء في بيت والدتي فاقتحمه الشبّيحة ومنعونا! إذ كيف سنتلقى العزاء في شخص "خائن... مات في السجن"!!

شهادة هيثم خطاب



كان الأخ الشهيد أبو فيصل الرفاعي، رحمه الله، من الشباب الطيبين جداً. كان قاضياً عسكرياً يرجع أصله إلى بلدة نصيب الحدودية بدرعا.

لم أشهد حادثة قتله. كان في المهجع المجاور وكنا نسمع الأصوات الآتية من هناك وخاصة عند الضرب، كان الصياح مرعباً، لا يوصف نهائياً.

سمعنا عن استشهاده يوم قتل، غير أني لم أكن في مهجعه بعد أن فصلونا.

عندما كنا سوياً كان قد وصل إلى ما يشبه الانهيار النفسي، فضلاً عن سوء وضعه الجسدي. لم يتركوا شيئاً من وسائل التعذيب لم يمارسوه ضده؛ عصيّ الكهرباء، الضرب بالأنبوب المعدني (البورية)، وبشكل دائم. أمروه بخلع ملابسه فكان عارياً حتى من الملابس الداخلية وكانوا يصبون عليه الماء البارد. كان ينام على البلاط في أشد أيام الشتاء. صار يكره أن يزوره أحد لأنهم يأخذونه مصحوباً بالضرب ويعيدونه وهم يضربونه.

كان طويلاً، بنيته الجسدية قوية، لكنه أنهك تماماً بسبب قلة الطعام، فصار جلداً وعظماً كما نقول. صار شكله مرعباً لشدة هزالته، بالإضافة إلى الجرب والآفات الجسدية والنفسية التي أصابته.

لم يكن شخصاً عادياً، كان قاضياً، ولذلك تعمدوا إذلاله بشكل يومي ومستمر.

شهادة محمد



[illegible] أكتبها عن اعتقالي توقفت [illegible] ما وطلب إلى هذه القصة.

حدث هذا قبل أن أخرج من السجن بحوالي خمسة أشهر أو ربما أربعة، عندما نادوا اسمي للزيارة... "حط الكنزة براسك" فوضعتها. "امشي يا ابن الكذا... يا ابن الكذا... بدك تاخد الرضا من تبع أمك؟! جاية مرتك تزورك؟ بتكون امبارحة كانت نايمة مع أخوك اللي ضل برّة".
يصاحب هذا الكلام المؤذي الضرب والركل حتى نصل إلى صالون الحلاقة حيث نتخذ الوضعية جاثياً باتجاه الجدار والكنزات لا زالت تغطي رؤوسنا. وهنا يدخل السجانون فيتسلوا فينا: "منبطحاً... جاثياً"، وأثناء ذلك يدوسون فوقنا ويرفسوننا ويضربوننا بالأنبوب الذي يسمونه "الأخضر الإبراهيمي"، فيما الحلاق يتسلى هو الآخر بضرب الوجوه بماكينة الحلاقة.
كانت كنزتي تشف عن بعض الرؤية. وعند دخولي إلى الصالون لاحظت وجود شخص ملقى في وسط الغرفة، كان شديد النحافة، مجرد جلد وعظم. كان أخي الصغير أحمد المدلل في أسرتنا. كنت أعرف جسمه لكن هزالته شككتني، فدعوت الله ألا يكون هو. يتعلق الإنسان بالأمل مهما كان. عندما أخذ يئن تأكدت أنه أخي.
كان وجهي إلى الحائط فناداني الحلاق/ السجان. حلق بعض شعري وترك قسماً آخر، وجانباً من شاربيّ وترك الطرف الثاني. كان يتسلى. كانت عيناي مغمضتين طبعاً. إن فتحت عينيك سيضربك بالماكينة عليهما.
بعد أن انتهى ركلني لأعود إلى مكاني. أثناء ذلك كان يسأل زملاءه: "هاد الحيوان اللي متسطح بالنص ليش جبتوه؟ خدوه ارموه بالزبالة!".
وصل الزائرون إلى القاعة المخصصة فأخذ السجانون يذيعون أسماءنا للانتقال إليها. دخل أحدهم وذكر اسم أخي فلم يرد أحد. قال له آخر: "لا يكون هاد الحيوان ابن الشرموطة اللي بنص الغرفة؟". أهملوا الأمر. وبعد قليل نادوا اسمي وانتبهوا إلى تشابه الكنية واسم الأب فسألني السجان: "أخو الشرموطة أخوك هادا؟! تعا ولا حيوان شيله".
هرعت إلى أخي بلهفة كي أحضنه، أضمه، أحميه بجسمي. لا أعرف. حملته على ظهري. ورغم أن جسمي كان هزيلاً جداً إلا أن وزنه كان خفيفاً. قال لي: "يا أخي أنا تعبان". لم أدر ما أقول كي أشجعه في هذا الموقف فقلت: "معليش... بيعين الله". تركوني أصل به إلى باب غرفة الزيارة وهم يستهزئون ويضربوني ويضربوه. عندما وصلت قال أحدهم: "زتّه هون". أنزلته أرضاً وكانت المرة الأخيرة التي ألمسه فيها.
أدخلوه إلى القاعة، وهنا سأكمل الرواية نقلاً عن والدتي وشقيقتي اللتين كانتا في الزيارة. حمله اثنان من السجانين، أو جرّاه، وكي يستمر واقفاً ألصقا جسده بالشبك وأسنده أحدهم بيده من ظهره. في هذه اللحظة لمحته أختي فقالت لأمي: "ليكي ليكي هادا الشب... كيف أهله بدّن يزوروه؟!!". فنظرت إليه أمي وقالت: "إي والله خطي... هادا كيف أمه رح تتحمل تشوفه!". حتى أذاع السجانون الاسم ونادوا أمي قائلين: "هادا ابنك"!
في البداية قالت: مستحيل!". صارت تحدثه لم يستطع الكلام. فأخرجوه ورموه وقالوا لي: "صار دورك بالزيارة". دخلت محاولاً التماسك. ماذا أستطيع أن أقول أساساً؟ على يميني سجان وعلى يساري آخر، وورائي ثالث، وبين الشبكين رابع، واثنان مع أهلي. كان الحديث لا يمكن أن يتجاوز "كيفكن؟... شلونكن؟... جيبولي تياب".
حين انتهت الزيارة وخرجت بادرني أحدهم قائلاً: "تعا لهون أنت يا ابن الكذا". اقتربت فأمرني بالسجود. أتى أحدهم. كان مثل رجل عصابة، ومعه حوالي العشرة، فسأل الأول عن أخي الملقى أرضاً: "شو هاد؟" فأجاب: "هاد مثّل قدام أهله إنه مرضان!"، فقال: "إي... منعمله تنفس اصطناعي".
مددوا أخي على ظهره وصار هذا الأخير يقفز ثم يهبط على رقبته. يستحيل أن يغيب عن خاطري صوت شهقته

وهو يأخذ نفَساً بين الدعسة والأخرى، فيما السجان يواصل القفز وهو يسأله: "عم تتنفس؟!" فيجيب أخي: "لا"، فيقول: "إي... منكسّرله عضام صدره... بيجوز الرئتين فيها مشكلة". وصاروا يتقافزون عليه ويركلونه. لم يستطع أن يتكلم، كان فقط يصدر الآهات وشهقات النفَس. وبعدما صار ينزف قال أحدهم: "ليك ابن الكذا عبّاني دم!".
كنت لا أزال في وضعية السجود، أحدهم يضع قدمه على رأسي، وكلما تكلموا شيئاً يدعسني أكثر ببوطه ويقول: "جهّز حالك... هلق دورك". في لحظة كهذه ماذا يستطيع المرء أن يفعل؟ قلت في سرّي: "يا رب... هذا حكمك فينا وأنا راض به".
أخيراً أتى شخص بدا أن رتبته أعلى من الموجودين فسأل عن أخي: "شو هاد؟". أجابه أحدهم: "هاد فطس"، فقال: "يلا خده". تهامسوا قليلاً عني ثم قال: "وهاد كمان خده رجّعه"، فأعادوني إلى مهجعي.

شهادة منير الفقير



شبح صيدنايا

دون أن أعلم، كان يوم 9 أيلول 2012 آخر أيامي في فرع الدوريات (216) الملاصق لفرع فلسطين. كنت قضيت هنا ثلاثة أشهر، بعد أربعة سابقة تنقلت فيها بين فرع المداهمة (215) والفرع الإداري (291). وهذه الفروع كلها تابعة لشعبة المخابرات العسكرية.

في هذا اليوم نادوا أسماءنا، أنا و"أولاد دعوتي" كما نطلق على مجموعة المعتقلين على ذمة قضية واحدة، وأعادونا إلى الفرع 291 حيث كانت بانتظارنا حفلة استقبال وحشية، ثم أنزلونا إلى الذاتية في القبو حيث أجبرونا على التوقيع على أوراق لا نعرف محتواها، وأعطونا "الأمانات" التي كانت موجودة مع كل منا عندما اعتقل، وأودعونا في غرفة وجدنا فيها كمية كبيرة من السكر الذي سررنا بلعقه بعد جوع.

جاء أحد المساعدين ليقتادنا إلى المهجع فلاحظنا أن وضع الفرع قد تغير خلال هذه الأشهر القليلة. كانت البلاد قد دخلت حالة الحرب. ففي حين كان عدد المعتقلين في المهجع الواحد في السابق من 60 إلى 70، فإننا وجدنا الاكتظاظ شديداً إلى درجة وجود 120 شخصاً في المهجع. أما نحن فوضعونا في الممرات وكان السجانون يركلوننا أثناء ذهابهم وعودتهم وهم يتوعدوننا بالإعدام في هذا اليوم ويشتموننا بألفاظ مقذعة.

لم نكن نعرف مصيرنا. كنا قد صدفنا أحد المعتقلين القادمين من سجن صيدنايا للتحقيق معه منذ عدة أشهر، وحكى لنا عن الوضع هناك فلم نصدقه. من وجهة نظرنا كان بعيداً جداً أن يتكرر ما جرى في سجن تدمر إثر أحداث الثمانينات.

بعد قليل نادوا علينا وقيدوا أيادينا إلى الخلف وأركبونا في سيارة نقل متوسطة (فان) حيث تعرضنا للضرب بأعقاب البنادق طيلة الطريق الذي كنا نأمل أنه سينتهي بنا في القضاء العسكري الذي توقعنا أن يفرج عنا كما جرت العادة في بداية الثورة. أنا ابن دمشق وأستطيع تقدير حركة السيارة التي وصلت بنا أخيراً إلى مقر الشرطة العسكرية في حي القابون. تحدث المسؤول عنا مع عناصر الحاجز ففهمنا أننا حُوِّلنا إلى المحكمة الميدانية. كانت هذه كارثة رفضنا تصديقها، فأقنعنا أنفسنا أن المقصود جماعة أخرى أو أننا سمعنا خطأً، لكننا وصلنا إلى باب هذه المحكمة المريعة حيث جرى لنا استقبال وحشي. أدخلونا إلى ذاتية المحكمة وأخذوا بصماتنا على أوراق لم نعرف محتواها أيضاً، فقد كانت أيادينا مقيدة إلى الخلف وكانوا يستعملونها للبصم! قبل أن يُدخلونا إلى غرفة القاضي الذي سأل كلاً منا بشكل مقتضب جداً، لا يتجاوز دقيقتين أو ثلاثاً للشخص. ثم أنزلونا إلى سجن الشرطة العسكرية حيث وجدنا مهجعين يحويان حوالي 200 شخص كانوا ينتظرون تحويلهم إلى أماكن أخرى، فهذا السجن مقر مؤقت أو موزِّع.

يدور حديث المعتقلين في العادة حول محورين؛ الوضع في الخارج والمصير. بعد أن غاب تفاؤلنا بالإفراج عنا تبادلنا الحديث مع بعض الموجودين لنبحث عن حالة مماثلة نستطيع القياس عليها وتبيّن مصيرنا، فقيل لنا إن تحويلنا إلى صيدنايا وارد جداً لكننا كذبنا على أنفسنا مرة أخرى: لماذا يأخذوننا إلى صيدنايا ونحن معارضون سلميون؟! لكننا سمعنا هنا معلومات أكثر عن هذا السجن على كل حال. لم يكن لدينا مانع في معرفة الفرق بين المبنى الأحمر والمبنى الأبيض رغم أن هذا الأمر "لا يعنينا"، فقد "قررنا" من عندنا أننا سنذهب إلى مكان آخر، كسجن دمشق المركزي (عدرا) أو ما يشبهه.

في الصباح التالي أذاعوا أسماء جميع الموجودين في المهجع ثم قسمونا إلى مجموعتين؛ قُيِّدت أيادي الأولى إلى الأمام وظلت رؤوسهم مرفوعة بشكل طبيعي واقتادوهم، أما نحن، وكنا 27 شخصاً، أولاد "دعوتنا" وأبناء قضايا أخرى

تتعلق بالثورة ولكنهم قادمون من فروع أخرى، فقد قيدونا إلى الخلف وأجبرونا على حني رؤوسنا ثم طمشونا.
كان الشاب الذي أمامي شجاعاً فتجرأ على سؤال أحد عناصر الشرطة العسكرية: "نحن لوين رايحين؟" فأجابه: "على صيدنايا، الله يعينكن"!
عندما جمعونا لانتظار دورنا في الصعود إلى "سيارة اللحمة"، ذات الصندوق المغلق المخصصة لنقل السجناء، أبلغت رفاقي بالخبر. كانت صدمة لي وللجميع، وبدأنا نقتنع أننا عدنا إلى سنوات الثمانينات.
في السيارة كنا نبكي، وأخذنا نستعيد ما كنا سمعناه عن هذا السجن ولم نصدقه. كان معنا أحد نزلائه، وهو في طريق عودته من المشفى، فصار يخبرنا معلومات أكثر تفصيلاً. كنت أكبَر رفاقي، إذ إنني من مواليد 1979 بينما كان أكبرهم من مواليد 1987، فحاولت التماسك وأخذت أقول لهم: "شدّوا حيلكن، خليكن قوايا"، واقترحت أن نردد بعض الأذكار وندعو الله خلال الطريق الذي طال وتعرّج.

في السجن

وصلنا إلى البوابة الأولى فسمعنا صوت الطاقة يُفتح. شعرنا أنهم نظروا إلينا وأغلقوها، ثم أخذت السيارة تصعد باتجاه المباني حتى توقفت على حاجز أعتقد أنه يتبع للسجن الأبيض، ثم توقفت أخيراً أمام الأحمر الذي كنا قد عرفنا أنه الأسوأ.
كان الهدوء مرعباً حتى قطعته جلبة تراكض وخطوات تقترب باتجاه السيارة، ثم تصعد درجها المعدني. فتح أحدهم الطاقة وقال: "انزلوا يا شراميط..." وكلمات أخرى مشابهة. تدحرجنا على الدرج فمنّا من وقع على وجهه أو ظهره أو يده، ومنّا من تمزقت ملابسه أو انخلع حذاؤه من قدمه. كان الضرب قد بدأ لكن همنا الأساسي كان ألا تفلت الطماشة عن أعيننا، فقد انزاحت عن عينيّ أحدنا فتلقى ضرباً مضاعفاً.
أذكر أننا مشينا حوالي خمسة أمتار ثم صعدنا درجتين ودخلنا إلى بهو. في الداخل أمرونا أن نتخذ وضعية السجود ونضع رؤوسنا على البلاط، وأخذوا يضربوننا بشكل وحشي بأنبوب التمديدات الذي يسمونه "الأخضر الإبراهيمي". كنا قد سمعنا عنه بالأمس لأول مرة، وكان مؤلماً للغاية.
فك عناصر الشرطة العسكرية، الذين صحبونا من المقرّ في القابون، الكلبشات عن أيادينا بكل هدوء، سلّمونا إلى عناصر السجن التابعين أيضاً للشرطة العسكرية، وانسحبوا. فيما تولى الأخيرون ضربنا بعدما أمرونا أن يطمّش كل منا نفسه بكنزته. بدأنا نتلقى تعليمات القواعد هنا: يطمِّش الواحد نفسه برفع كنزته من طرفها الأسفل في الخلف الذي يُقلَب ليغطي الرأس، وبعد ذلك يضع السجين يديه على عينيه، لا من طرف الأصابع بل من راحة الكف، كي لا تكون هناك فرصة لأن ترى أحداً. كان التطميش هنا ذاتياً، ومن يفتح عينيه سيُعاقَب باقتلاعهما!
أجبرونا على خلع أحذيتنا ثم أمرونا بتسليم "الأمانات". كان الضرب يصاحب هذه العملية التي تترافق أيضاً مع أخذ "الذاتيات"، أي المعلومات الشخصية: اسمك؟ اسم ابوك؟ اسم الشرموطة؟ وهنا يجب أن تذكر اسم أمك وإلا ستتلقى الضرب. عندما خاطبني بهذه الصيغة أول مرة أجبته: "نعم؟!" فضربني بالأخضر الإبراهيمي وكرر السؤال. تجاهلت الجواب فضربني مرة ثانية وكرر السؤال، فقلت اسم أمي.
أثناء "الاستقبال" يُعامل بعض السجناء بطريقة خاصة، كالأطباء والمهندسين تحديداً، وبدرجة ما المحامين والضباط والصحفيين، إذ يتعرضون لتعذيب متفنّن نتيجة ما يشعره السجانون تجاههم من نقص. في الحقيقة أنك تلحظ

لديهم مجموعة من العقد؛ فهم طائفيون، مناطقيون، حاقدون طبقياً نتيجة الفقر، غير متعلمين، صغار في السن إذ تتراوح أعمارهم بين 18 و20 عاماً، وتظهر آثار كل ذلك في تعاملهم مع السجناء من حملة الشهادات العلمية أو الموقع الاجتماعي أو الميسورين مادياً أو الأكبر سناً... حتى صاحب الجسد الرياضي كان يثير غيظهم فيسعون إلى "كسر رأسه"!

صرّح بعض زملائي بمهنهم فتلقوا ضعفين من العذاب، أما أنا فتهربت من شهادتي في الهندسة بأن صرّحت أن عملي "كهربجي كمبيوتر"، وهكذا سجّلوا!

كان علي، أحد أبناء دعوتنا، لاعباً متمرساً في كرة السلة. كان ضخماً فلم يُدخلوه معنا إلى الزنزانات في البداية بل استبقوه ليتفننوا فيه. ضربوه بشدة ثم ركبوا فوقه وصاروا يتنقلون عليه. كان طيباً ومحترماً ورقيقاً للغاية فكسرته هذه المعاملة. بعد شهرين تقريباً سيستشهد بعد أن رفض جسده الطعام وقرر أن يموت.

كان واضحاً أن إدارة السجن تطلق للعساكر العنان في التعامل معنا، لأن ما عرفناه من رحلتنا في الأفرع وصيدنايا أن كل شيء ممنهج وبأمر أو تعليمات.

أنهينا تسليم الأمانات وتسجيل الذاتيات وحان الوقت لنتلقى درس "القطار"، وهو أن يتخذ السجناء وضعية الركوع ثم يمسك كل منا بخصر المعتقل الذي أمامه ووجوهنا إلى الأرض. أنزلونا درجاً قاسياً، ارتفاع الدرجة حوالي 20-25 سم. ربما كانت هذه هي الحالة الوحيدة التي لا يتلقى فيها السجناء الضرب في صيدنايا، أثناء اتخاذ وضعية القطار ونزول الأدراج أو صعودها، نتيجة ما قد يحدث من فوضى لو تعثر أحدنا وهوى بالباقين.

في الزنزانة

ظلوا يكررون "انزل درج... انزل درج" حتى وصلنا إلى الزنزانات التي تكون في العادة أول مكان يُودَع فيه سجناء صيدنايا. في الفسحة بين الزنزانات أمرنا أحدهم بخلع ملابسنا قائلاً: "بخلال 3 عدّات بدكن تكونوا متل ما نزلتوا من (....) أمهاتكن". ريثما عدّ إلى الثلاثة كنا عراة، ومن لم يخلع كل ملابسه دمّيَ من الضرب. أمرنا السجان بالانبطاح على بطوننا ورفع أقدامنا وقال إن حصة كل منا عشر ضربات، فإن أصدر صوتاً نتيجة الألم سيضاعف العدد إلى 100. لا أعتقد أنهم اكتفوا بضرب أحد منّا عشر ضربات فقط. ربما لم يصل العدد إلى 100 ولكنه كان رقماً ضخماً ومتفاوتاً.

تختلف منهجية التعذيب في صيدنايا عما يجري في الأفرع. فهناك يهدف التعذيب، في الغالب، إلى الحصول على المعلومات، ويحدث أحياناً بقصد الإهانة والإذلال والتشفي، أما هنا فلا يهدف التعذيب إلى غير ذاته. صيدنايا مكان خُصِّص لمعاقبة الثورة السورية. الأمر الثاني هو أن السجان في الأفرع يستمر في الضرب حتى يحصل على ما يريد من معلومات حقيقية أو اعترافات كاذبة في حال التحقيق. فإن كان الضرب للعقوبة على عدم إطاعة الأوامر أو لمشكلة حدثت في المهجع أو لأي سبب آخر فإنه يستمر حتى يصرخ السجين الذي يُعدّ امتناعه عن الصراخ تحدياً. أما في صيدنايا فعلى العكس، يُفترض أن تتلقى الضرب وأنت صامت، وكلما صرخت زادت عقوبتك.

بعد حفلة التعذيب أمرنا أحدهم: "الكل واقفاً" فنهضنا. حشروا كل تسعة منا في زنزانة مربعة، مترين في مترين كما أتصور، فيها مرحاض يحتل ثلث المساحة ويفصله جدار عن باقي الزنزانة. في الليلة الأولى حشرونا في المرحاض فقط، بعد أن أبلغونا بمنع الكلام. على كل حال سيستمر معنا هذا الحظر طيلة بقائنا في صيدنايا. كانت ملابس كل

مجموعة قد جلبت ورميت على باب زنزانتها، وكانوا يفتشونها عندما سمعوا صوتنا الخفيض من الداخل ونحن نحاول أن نتدبر أمر وقوفنا، نحن التسعة، في هذه المساحة الخانقة. فأمرونا بمد أيادينا تباعاً من "الشرّاقة" الصغيرة التي في أسفل الباب وتلقينا عقوبة إضافية بالضرب عليها.

صرخ صوت منهم مخاطباً السجناء الجدد ليتعرفوا على تعليمات السجن: هنا كل شيء بأمر... تأكل بأمر وتشرب بأمر وتنام بأمر وتستيقظ بأمر. أي تصرّف من عندك ستكون عقوبته شديدة. الكلام ممنوع والهمس ممنوع. عندما تسمعون حركة في الممر يجب أن تأخذوا فوراً الوضعية "جاثياً" داخل الزنزانة. أما عندما يُفتَح بابها فيجب أن يكون الجميع قد صاروا بهذه الوضعية داخل المرحاض، لا واقفين هناك. من اليوم فصاعداً أنتم "ولاد شرموطة". وهنا يسأل كل زنزانة وكان على الموجودين فيها أن يجيبوا "نحن ولاد شرموطة". لم يخرج هذا الجواب قوياً ومتحمساً كما اللازم من إحدى الزنزانات، فعوقبوا بشدة على ما رآه السجان تراخياً!

في كل زنزانة "قصعة" للطعام، يخرجها السجناء فارغة في الصباح وعندما يُوزَّع الأكل يتلقون أخرى، أو ربما يتلقونها نفسها بالصدفة. عندما دخلنا إلى زنزانتنا وجدنا قصعتها مليئة بالماء الذي يخالطه شيء من الصابون. كان أحد السجناء قبلنا قد وضع قميصه ليغسله فيها.

مرت الليلة الأولى. كان مستحيلاً أن ننام جميعاً داخل المرحاض الضيق الحاصر، ولذلك "خرج" بعضنا إلى المساحة المتبقية في الزنزانة وناموا هناك. كان هذا ممنوعاً الآن لكن أحداً لم ينتبه.

في اليوم التالي فُتح الباب ورموا لنا ملابسنا. كانت تلك من لحظات الفرح. بعد قليل صرنا نسمع صوت رمي ربطات الخبز على أبواب الزنازين ثم أمرونا بإخراج القصعات من الطاقات في أسفل الأبواب. توليت هذه المهمة فأمرني أن أمد يدي من الشرّاقة وتلقيت عليها ضرباً لأنني لم أكن سريعاً كفاية. كنا نتعلم، وكان تعلم نظام صيدنايا يتم عبر الضرب دوماً. بسبب تعرضي لإصابة سابقة في يدي قرر زملائي أن عليّ ألا أكرر إخراج القصعة الفارغة أو إدخال الممتلئة، لأن ذلك يكون مصحوباً بالضرب على يد من يفعل ذلك غالباً. رفضتُ، وفي اليوم الثالث حرصت على إخراج القصعة بأقصى سرعة فنجوت. أما عند استلامها ممتلئة ففشلت. كان عليك أن تفعل ذلك خلال أجزاء من الثانية، وقد تمكنت من ذلك، لكنها كانت تحوي ذلك اليوم بطاطا في الأسفل، وفوقها رز، وفوقه مربى. أثناء إدخالها علق بعض المربى بالحافة العلوية للطاقة فقال السجان: "مد إيدك"! ضربها ثم قال: "نضّف" فأخذت أمسح الحديد من الخارج وهو يهرس ببوطه يدي التي صارت تنزف.

تبيّن أن نظام صيدنايا أن أي وافد يجب أن يقضي في الزنزانات مدة تتراوح بين أسبوعين إلى ستة أشهر، ثم يُحوَّل إلى المهاجع فوق. قضينا في الزنزانة أكثر من خمسة أشهر كانت صعبة للغاية. كان للقادمين من سجن عدرا المدني استقبال خاص مكثف مع العبارات: "جايين من عدرا يا كلاب؟ مبسوطين كنتو؟ والله لننسيكن عدرا"، وهو ما انعكس علينا، فرغم أننا كنا قادمين من الفرع إلا أن المجموعة التي قدمت معنا كانت محوّلة من عدرا، وبعضهم كان متهماً بمحاولة القيام باستعصاء هناك، فحسبونا عليهم وأصابنا ما أصابهم من استقبال ومن طول إقامة في الزنازين.

يوميات الزنزانة

انتخبني الزملاء رئيساً للزنزانة، ومنذ يومنا الثاني قررنا أن نضع خطة لحياتنا التي لا نعرف كم ستستمر هنا. في اليوم الأول لم نصلّ، أو صلّينا عراة فرادى واقفين، وفي اليوم الثاني قررنا أن نصلي على الشكل التالي: صلاة الفجر منفردة، وصلاتي الظهر والعصر جمعاً، وكذلك المغرب والعشاء. لم نكن نعرف اتجاه القبلة فاجتهدنا في تقديرها. سيأتي يوم نزور فيه سجن صيدنايا ونتأكد إن كانت قبلتنا صحيحة أم لا. اجتهدنا بحسب الظرف في الحقيقة، إذ قررنا أن نصلي جلوساً، وأن تكون القبلة باتجاه الحائط كي تكون ظهورنا للباب، فإن أتى السجان وجدنا جالسين في الوضعية المطلوبة أصلاً. كنا نصلي جماعة. كانت تلك الأيام من الأكثر قرباً إلى الله. حافظنا على الأذكار. نظمنا برنامجاً لتبادل تحفيظ القرآن الكريم ومراجعته، حفظنا كثيراً من السور. وكانت كثير من معانيها تنسجم مع حالتنا، في رفع المعنويات وشد الأزر والحض على الصبر والثبات والإصرار على حمل الحق، مما كان يعطينا قوة رهيبة.

كنا نواظب على تكرار بعض السور، كسورة "المُلك" في الصباح و"الواقعة" مساء و"الكهف" يوم الجمعة. أذكر أننا نسينا قراءة سورة الملك في إحدى المرات وغفا صديقنا علي قليلاً فرأى في نومه سجاناً يهم بضربنا بأنبوب "الأخضر الإبراهيمي" فلا يستطيع ذلك حتى قال حانقاً: "كفوا عن قراءة سورة الملك فهي تمنعني من ضربكم". بعد هذا دأبنا على تكرار هذه السورة بالتحديد. وسبحان الله؛ في المرات القليلة التي سهونا فيها عن قراءتها كان أحدنا يتلقى عقوبة!

لاحظنا وجود مياه في التمديدات وقطعة صابون صغيرة فتناوبنا على الاستحمام في المرحاض. كان يجب أن يتم هذا بسرية أيضاً، فلو سمعوا صوت صب الماء سيكون عقابنا شنيعاً لأننا استحممنا دون إذن!

عند النوم اضطررنا أن يبقى علي في المرحاض بسبب ضخامة جسمه، وكان بالإمكان أن ينحشر ستة في أرض الزنزانة بطريقة "التسييف"، وهي أن ينام الواحد على جنبه ونتتالى متعاكسين بالرؤوس والأقدام، ويبقى اثنان واقفين، وهكذا نتناوب. تلصق هذه الطريقة الأجساد ببعضها مما يبعث قليلاً من الدفء، لكن النوم لساعات على طرف واحد، دون إمكانية التقلب إطلاقاً، كان مرهقاً.

مع استمرارنا في الزنزانة صارت أمورنا تتطور فأخذتُ، وشابين آخرين، نقوم ببعض التمرينات الصباحية بقدر ما تسمح مساحة البلاطة التي يقف عليها كل منا، كي نحافظ على لياقة أجسامنا قليلاً. كان هذا ممنوعاً أيضاً وكان علينا أخذ الحيطة.

يؤمن كل المعتقلين في سجون الأسد بالأحلام، أو فلأقل معظمهم، مهما كانت درجتهم الثقافية أو التعليمية، لأن السجين يبحث عما يدعمه. وفي كل زنزانة أو مهجع يظهر "مؤول" للمنامات أو مفسر لها، حتى لو لم يمتلك أي خلفية سابقة في هذا المجال، لكنه يرث هذه "الخبرة" غالباً من شخص كان هنا ثم انتقل، ويأخذ بتأويل الأحلام وفق بعض الثوابت، فإن رأيت أنك في مدرسة أو جامع فهذا يشير إلى السجن وإن خرجت منهما فهذا يعني الإفراج عنك... والكثير من التفاصيل التي يعرفها السجناء السابقون.

في حالتنا بقي "مؤولنا" في الفرع. كنا قد تعلمنا منه بعض الأشياء فأدرجنا في برنامجنا فقرة يومية باسم "شفت بمنامي" تأتي بعد الإفطار. كان كل منا يروي ما قد يكون شاهده في الليلة السابقة وكنا نتبادل التفسير جميعاً، بسبب عدم وجود "مؤول"، بالاستناد إلى ما سمعناه من هذا الشخص أو ذاك في الأفرع. كانت فقرة مسلية. كنا

نشترط في الحلم المرشح للتأويل ألا يحوي طعاماً أو شراباً، لأننا اعتبرنا وجودهما دليلاً على مجرد انشغال بال الحالم بهما. وكذلك أسقطنا الأحلام التي يرى فيها المرء نفسه يخرج من السجن، لأنها نابعة من هذه الرغبة بشكل مباشر. كنا نفضّل المنامات التي تحوي رموزاً من خارج حياتنا اليومية.

كنا نتلقى زاداً إيمانياً بالصلاة والأوراد عندما نستيقظ، ثم زاداً جسدياً بالطعام، فزاداً نفسياً من هذه الفقرة. بعدها كان أحدنا يدرّس الآخرين موضوعاً يعرفه؛ فأجرينا دورة في التجويد، ودورة في تاريخ سورية المعاصر الذي كان كثير من شباب الثورة يجهلونه نتيجة عدم تحدث أهاليهم في موضوع كهذا لأسباب أمنية. كنا نتناقش يومياً حول الثورة وحول تقييم المرحلة السابقة منها. كان كل ذلك يجري همساً بالطبع. لم يكن كل ذلك يستغرق وقتاً طويلاً، ربما ربع ساعة أو نصفها للفقرة، لكن وقتنا كان مستهلكاً بالحذر والترقب والانتباه وتحليل الأصوات الآتية من الخارج واتخاذ الوضعية جاثياً في أي لحظة يُفتَح فيها الباب.

من لحظات الرعب التي يعيشها السجين لحظة سماع صوت الباب، أو سماع صوت فتح الشرّاقة السفلية الذي سيليه صوت السجان: "يلا... عرصة عرصة كل واحد يمد إيده". وهنا كان علينا أن نمد أيادينا بالتتالي لنتلقى عليها الضربات. كان السجانون يخلعون أبواطهم الثقيلة أحياناً ويسيرون بهدوء كي يسمعوا إن كان أحد ما يهمس، وفجأة يقطع الصمت المطبق صوت الشرّاقة وهو يُفتح مع الأمر: "مد إيدك"، ويبدأ الضرب. كان صوت فتح أي زنزانة ثانية أمراً مرعباً أيضاً، فهو يعني اقتياد نزلاء منها إلى مكان لا يعلمه إلا الله.

أحياناً كان السجان يأمر بمد الرأس من الشرّاقة لا اليدين، ويأخذ بضرب المعتقل. وأحياناً كان يأمر بمد الرجلين فيربطهما ويشدهما إلى مقبض الباب في الأعلى بقوة فتصبح الحافة العلوية للشراقة على الساقين مما يسبب ألماً مضاعفاً يضاف إلى ألم الضرب. وفي إحدى المرات أمر زنزانة مجاورة بمد أياديهم بالتتابع فجاءه صوت من أتى دوره من الداخل، وهو رجل من بانياس سنتعرّف عليه لاحقاً في المهجع حيث سيتوفى رحمه الله، يقول: "يا ابني أنا زلمة كبير... عمري 55 سنة" فأجاب السجان: "إذا كبير على عيني... عن كل سنة كبل"، وهكذا فعل.

رغم ذلك كانت هناك أصوات جميلة، كصوت خلخلة المياه عندما تعود إلى السريان في التمديدات بعد انقطاع، وصوت ربطات الخبز وهي تُرمى على أبواب الزنازين صباحاً. كان هذا الصوت موسيقى قائمة بذاتها في أسماع السجناء الجائعين، ولحناً ما بعده لحن! كنا نحمد الله يومياً على هذا الصوت، ففي بعض الأيام جرت اشتباكات طاحنة على الطريق المؤدي إلى السجن فانقطع تزويدنا بالطعام. بالتدريج أخذنا نعرف إن كانت ربطة الخبز كاملة (ثمانية أرغفة) أو ناقصة من صوتها وهي تحط على الأرض بعد أن يرموها. من الأصوات الجميلة جداً أيضاً صوت العصافير الذي كانت يُسمع أحياناً فيخرجنا مما نحن فيه من عزلة. للأسف، كانت بعض الزنزانات في الجهة الأخرى محرومة منه. ومنها أيضاً صوت طقطقة أو تحميص البوشار الذي كان المجرمون في الخارج يعدّونه لأنفسهم. كان جميلاً من جهة ومزعجاً من جانب آخر، فقد كنا نتذكر البوشار، ونشم رائحته أحياناً، ونحن نتضور جوعاً بسبب كميات الطعام القليلة جداً جداً. إذ غالباً ما تكون حصة الواحد من الرز، على سبيل المثال، مقدار ملعقتين من الرز المطهو بشكل سيئ، حتى أننا نسمع صوت سكبه في القصعات وكأنه رز قاس غير مطبوخ. كانت حصة الواحد من الزيتون نصف حبة، أو حبة في أحسن الأحوال، مطعّمة بالمازوت في الغالب. كنا نعاني من مجاعة حقيقية. كان ما يحضرونه لنا، نحن التسعة، يكاد أن يكون نصف ما يأكله الشخص المعتدل يومياً عادة. ولذلك صرنا نأكل الأوراق الخضراء التي قد تأتي مع الزيتون أو البرتقال، وقشر البيض الذي اكتشفت أنه طيب جداً، وكذلك قشر البطاطا.

لم يكن في الزنازين أي شيء يمكن أن يشغلنا أو يسلينا، فقط جدران صلبة وأرض مبلّطة، وكان عليك أن تخترع شيئاً ما. باعتبار أن اختصاصي معلوماتية كنت أكتب بإصبعي على الجدار بعض المعادلات والبرامج، وإن استطعت الاستفراد بمساحة لو ربع بلاطة كنت أكتب عليها مذكراتي، كتابة وهمية طبعاً إذا لا توجد لدينا أي وسيلة للكتابة فكنا نتخيلها ذهنياً.

في الزنزانة التي بجوارنا، ورغم ندرة الطعام، اقتطعوا منه جزءاً أعادوا عجنه وصنعوا منه أحجاراً للعب الضامة ليملأوا الوقت قليلاً. ولما كشف السجانون ذلك عوقبوا بإغراق زنزانتهم بالماء في ظروف شديدة البرودة. استمر ذلك لثلاثة أيام ولم يُرفع إلا بعد أن توفي أحدهم. في زنزانة أخرى كان هناك شاب يكثر من رجاء السجانين ألا يضربونه، وكلما أمره السجان بمد يده كان لا يفعل وينطلق في القول: "كرمال الله يا سيدي". في كل مرة يذكر هذه الجملة أو مرادفاً لها كان السجان يشتم الله. ضجر هذا أخيراً وأخرجه قائلاً: "بدي آخدك على عزرائيل". وبالفعل، اصطحبه ولم يعد به أبداً. وعندما رجع السجان قال لزملاء زنزانته: "شايفين اللي بيحكي شو بيصير فيه؟ بيروح عند عزرائيل وما بيرجع. ومنّه بيفضّي محل بالزنزانة لرفقاته".

كانت لزنزانتنا ميزتان عظيمتان؛ الأولى هي الثقب الذي كنا نرى من خلاله وجوه المجرمين، والأعمدة الملطخة بدمائنا ودماء من أتوا قبلنا وبعدنا. ما زلت أحتفظ برقم الزنزانة سراً حتى الآن كي لا يشيع، فربما كان هناك من يستفيد من هذا الثقب حتى الآن. الميزة الثانية هي أجواؤها الإيمانية التي كانت تمنحها حماية خفية. في إحدى المرات قرروا أن يعذبوا كافة نزلاء الزنزانات، كنا في الشهر الأول وكانت درجة الحرارة – 5. كان الوقت ليلاً عندما نزلوا وصاروا يفتحون طاقة الزنزانة ويقولون لرئيسها: "يا عرصة الزنزانة... خلي الكل يشلح بالزلط وجمّع تيابهن، وبعدين أنت اشلح وطالع التياب لبرة". بعد أن يصبح السجناء عراة كان يأمرهم بالاستلقاء على أرض الزنزانة متعاكسين. كنتُ قلتُ إن المساحة لا تكفي الجميع ولذلك كنا ننام بالتناوب، لكن السجان كان يأمرهم هذه المرة بالتراصّ حتى يصبحوا جميعاً مستلقين في أرض الزنزانة مهما صعب الأمر، ثم يوعز إلى رئيس الزنزانة أن يفتح الحنفية لإغراق الأرضية بالماء البارد. حتى لو ذهب السجان وعاد كان يجب أن يستمر جريان الماء الذي لا يتوقف في العادة إلا بموت أحد السجناء. عندما أخذنا نسمع الأصوات يومها همستُ لمن معي أن نتوجه بالدعاء إلى الله ليحمينا. وبالفعل، عندما وصل إلى زنزانتنا فتح الطاقة ونظر إلينا. كنا مستيقظين ولكننا تظاهرنا بالنوم الكامل. تأملنا السجان طويلاً ثم أغلق الطاقة وذهب.

بين التسعة في الزنزانة كنا سبعة من دمشق وتلقينا العديد من الزيارات. وفي كل منها كنا نطلب من أهالينا كميات مضاعفة من الملابس لتكفي الكل، فكنا مكسيين بشكل جيد وبعدة طبقات. في أحد الأيام رموا لنا عبر الطاقة ماكينة حلاقة موصولة بكابل إلى الخارج وأمرونا أن نحلق لبعضنا. خلعنا ملابسنا أثناء ذلك فوصلت إلى السقف بسبب كميتها. ولما فتح السجان الطاقة ورآها استغرب. كان من المنطقة الشرقية، وكان يتحول إلى مجرم عندما يكون مع السجانين العلويين، أما عندما يكون وحيداً فكان يبدو لنا معقولاً إذ يكتفي بالشتم دون الضرب. سألنا عن مصدر هذه الملابس وأظهر الغضب وتوعّد بمنعنا من الزيارات، وهو الأمر الذي كان أكبر منه على كل حال، ثم قال إنه سيطلب منّا في المستقبل ملابس لمن لا يملكها فوافقنا بحماس. كان أكثر سجناء الزنزانات عراة أو شبه عراة، وربما ظلوا لأشهر على هذه الحال. في الأيام التالية صرنا نضع ما يمكن أن نستغني عنه من ملابس في الزاوية، وكنا نسمع هذا السجان وهو يفتح طاقة إحدى الزنزانات ويقول لأحدهم: "ولا ليش مانك لابس؟" ثم يأتي إلينا فيطلب كنزة أو قميصاً. الحمد لله تمكنا بذلك من مساعدة آخرين في الزنازين المجاورة.

في أحد الأيام خرج أحدنا إلى الزيارة فاستغل الفرصة وقال للسجان نفسه: "سيدي نحن صرلنا 5 أشهر هون بالزنزانة، وأنتو قلتولنا رح ننسيكن عدرا، ونحن مو جايين من عدرا أساساً. نحن جينا بالصدفة مع سيارة اللي جايين من عدرا". ذهب السجان وأبلغ رئيسه فقرروا نقلنا إلى المهاجع بعد أن مدحوا سلوكنا خلال الأشهر الماضية ووصفوا زنزانتنا بأنها "مثالية".
كنت قلت إننا كنا في الزنزانة سبعة من "أولاد دعوى" واحدة، واثنين قدما معنا من القابون ودخلنا الزنزانة سوياً حيث تعرّفنا عليهما. خلال خمسة أشهر من الإقامة اللصيقة عرفنا عنهما كل شيء تقريباً وأدق التفاصيل والخصوصيات والسير العائلية، لكننا لم نعرف شكليهما ويعرفوا وجوهنا بدرجة كافية إلا في المهاجع. هناك صرنا نسأل بعضنا: مين أنت؟ أنت فلان؟ وذلك بسبب الظلام شبه المطلق في الزنزانة.

معركة الجوع

اقترحت على زملائي أمراً أسميته "إدارة معركة الجوع". فهم يجوّعوننا وعلينا أن ندير هذا الصراع بحكمة كي ننتصر فيه أيضاً. ورغم أن شهيتي كانت أعلى منهم، وكنت أكثر بدانة من معظمهم قبل السجن، لكنهم كانوا أقل صبراً بسبب أعمارهم الصغيرة نسبياً، فلم يكونوا يطيقون ادخار شيء من هذا الطعام القليل. أما أنا فقررت تأجيل بعض الخبز إلى الليل، فكانت عندي وجبة عشاء كل يوم. كانت لحظات انتظار العشاء، المكون من الخبز فقط في الغالب، من أمتع اللحظات! وقتها كنت أفكر: بعد قليل سآكل! وكأنني تلقيت دعوة إلى وليمة في أهم مطاعم دمشق.
في أحد الأيام كنت قد ادخرت نصف ربع رغيف للعشاء. كنت وضعته في كيس من النايلون وخبأته وراء خزان المياه كي لا يلمحه السجان إن دخل، ولأنه لا يوجد مكان آخر في الزنزانة. كنت قد قلت إننا ننام بالدور. كان معنا شاب سلفي، سيستشهد لاحقاً أيضاً، وجاع يومها. هل قلت "جاع"؟ الأصل في حياتنا هناك هو الجوع، لكن فلأقل إن الجوع بلغ منه مبلغاً شديداً وهو ساهر، فيما كنت بين النائمين أحلم بنصف ربع الرغيف الذي سأتناوله. عندما صار وقت استيقاظي نهضت وذهبت إلى الحمام وأخرجت الكيس فوجدته فارغاً. في الصباح سألت الزملاء فلم يجب أحد، أما هو فسعى إلى تغيير الحديث. قلت إنني لن أسامح من حرمني من القطعة التي كانت معدتي تتقطع وأنا أحلم بها، فحاول إسكاتي ثم صار يبكي. لم يعد عندي كلام، فلو لم يكن مضطراً لما أكل الخبزة.
يُتطلّب في من سيقسم حصص الطعام أن يكون عادلاً ودقيقاً ونظيفاً، لأنك لست على استعداد للتخلي حتى عن ورقة الليمون أو لحاء حز البرتقال. تحتاج إلى كل شيء كي تستطيع الاستمرار في الوقوف على قدميك. كانت الكثير من الخلافات تنشب نتيجة الاعتراض على قسمة الأكل. في إحدى المرات غضب اثنان منا وقررا أن يأكلا وحيدين، في زنزانة طولها متر ونصف كانا يأخذان زاوية، ثم عادا فندما وقررا أن يهديا شيئاً من حصتهما كل يوم لأحد. ففي هذه المرة يهديان فلاناً صندويشة رز بطول الإصبع، وفي المرة القادمة يهبان آخر زيتونة، وهكذا.
بسبب الجوع الشديد، سواء في الزنزانات أو لاحقاً في المهاجع، صرنا نحلم بالأكل. ثم تطور الأمر إلى أننا صرنا نتداول سيرة الطعام عبر تعلم الطبخ. لم أكن أجيد طهو شيء في حياتي، لكننا قررنا هنا أن يعلّم كل منا الآخرين ما يجيده من طبخات. كنا نحلم بالطعام، واعذرني في هذا التعبير، كمن يمارس العادة السرية. كنا نتخيل الطعام ونكاد نتلمظه، وفي الليل كنا نشعر بطعم الوجبة الخيالية في أفواهنا. مثلاً أنا من عشاق "الشاكرية"، ولشدة ما كنا نتحدث عنها ونتغزل بها ونتخيلها كنت أستيقظ أحياناً شاعراً بطعمها وكأنني تناولتها للتو!

في الزنزانة كان معنا شاب من اللاذقية، سيستشهد لاحقاً، وفي المهاجع كان معنا عدة شباب من اللاذقية وبانياس، فصاروا يحدثوننا عن طرق الصيد وأنواع السمك وأساليب طبخه. كنا بحاجة إلى هذا كي نشغل يومنا أيضاً. وكنا نخوض جدالات في تفضيل طبخ كل مدينة أو منطقة على الأخرى وهكذا. كانت المنافسة الأقوى بين المطبخين الشامي والحلبي، ولا سيما في النقاش حول "شيخ المحشي"، وقد تعلو الأصوات ويشتد السجال، لكننا كنا نعدّ هذه اللحظات من أسعد أوقاتنا لأننا نعيشها مع حديث الطعام. في مرحلة معينة يتوقف تفكيرك في الخروج من السجن، وتغيب عن بالك النساء، وتبقى فيك رغبة واحدة: "أريد أن آكل"!

في إحدى المرات كنا نتخيل كيف يطهو الحلواني المبرومة والبقلاوة وغيرها من الحلويات الشرقية. لم يكن أيٌّ منا يعرف الطريقة لكننا صرنا نتوقع. يومها جاءت لأحدنا زيارة، ولما سأله أهله عن أحواله أراد أن يطمئنهم فقال إنه بخير لدرجة أنه كان يتبادل الحديث مع رفاقه منذ قليل عن البقلاوة والمبرومة والهريسة. كانت زيارتي بعده، ولما جاؤوا لإخراجي كان في رحلة العودة. بطحوه على باب الزنزانة وصاروا يضربونه، فالكلام ممنوع في الزنزانة أصلاً، عدا عن أن هذا "الوقح" كان يتخيل البقلاوة والنمورة!!

لم نذق أي نوع من اللحم طيلة وجودنا في الزنزانة، أما في المهاجع فكانوا يضيفون أحياناً بعض الدجاج الغريب، إذ لا أذكر منه سوى الجلد والعظم.

في أول يوم لنا في المهجع رأيت شخصاً يغطس رأسه في كيس القمامة الموجود في الحمام وسط صوت خشخشة، وتبينت أنه كان يأكل بقايا العظم. فوجئت وقتها لكننا لاحقاً سنأكل العظم ونبيعه ونشتريه، كما سأبين في ما بعد.

عندما تُخرج الزنازين قصعاتها كانوا يجمعونها في وسط الممر ويبدأون بسكب الطعام فيها، الرز والمربى والبطاطا معاً، وهكذا. كانت القصعة صغيرة ويجب أن يكفي محتواها تسعة أشخاص.

يتولى "السخرة" توزيع الطعام، وهم سجناء المخالفات العسكرية الموجودون في المبنى الأبيض. في إحدى المرات لمحنا من ثقب في الباب أحد هؤلاء وقد انتهت كمية المربى في التنكة التي بين يديه ولا زال عليه أن يسكب منها لقصعتين. احتار قليلاً ثم بصق في التنكة وأخذ يحرك بصاقه في ما علق فيها من مربى جامد حتى تحصّل على كمية صبّها في القصعتين. لم ندرِ إن كانت القصعة التي وصلت إلينا إحداهما ولكننا أكلناها طبعاً، إذ لا يمكن الاستغناء عن المربى كمادة أساسية تحوي السكريات التي تساعدنا على الاستمرار. كانت الوجبة التي تحوي مربى عرساً، لكنه لا يقارن بالعرس الحقيقي الذي يكون عند وجود الحلاوة. كانت من نوعية لا يمكن أن تتناولها في الخارج لشدة رداءتها، لكنها كانت كنزاً هنا. أما العرس الأكبر فكان في المرات النادرة التي جلبوا فيها "بقلاوة" في بعض المناسبات الوطنية، كعيد الجيش أو ذكرى استيلاء حزب البعث على السلطة في الثامن من آذار. كانت حصة الواحد نصف قطعة، وكانت سيئة جداً، لكنها كانت لذيذة!

علي، الشاب الضخم الذي حكيت عنه سابقاً، والذي كان يملك محل ألبسة نسائية في أحد أرقى أحياء دمشق، وكان منعّماً؛ لم يتأقلم مع الطعام بسبب قذارته، وأصيب بصدمة نتيجة ما مر عليه، فعانى من تجفاف وإسهال شديدين، وصار يتقيأ كل ما يأكله، حتى استشهد.

في المهاجع كانوا يتعمدون أن يسكبوا الطعام على الأرض ويدعسوا في وسطه بأبواطهم ليقهرونا أو بسبب غيظهم مما يحصل خارج السجن. معنا صيدلاني كان يشغل منصباً مرموقاً في فرع شركة أميركية للأدوية بدمشق، وكنا قد وكّلناه بتقسيم الطعام بسبب حرصه على النظافة قدر الإمكان. في أحد الأيام أدخلوا الطعام. كنا في الوضعية

"جاثياً"، وجوهنا إلى الحائط وأيادينا على عيوننا، لكنه لمحهم يضعون القصعة إلى جانب الحمام الذي كان هنا أعلى بحوالي 10 سم، ثم يقشطون الماء الموجود في أرض الحمام والمرحاض فيصبونه على طعامنا الذي في القصعة، ثم خلطوا الماء الملوث بما في القصعة من مرقة شوربة العدس والرز، وبعدها رموا الطعام في الأرض وداسوا عليه وفعسوا البيضات الست التي أحضروها لحوالي 25 شخصاً، وخرجوا. التفتنا بعد قليل. لم يكن أحد منا قد رأى شيئاً باستثناء هذا الشاب الذي انشغل بأداء مهمته في قسمة الحصص وتوزيعها كالعادة. وبعد أن تأكد من أننا أنهينا طعامنا أخبرنا. غضب البعض لأنهم لم يعرفوا قبلاً ولكنه أجاب: كنت مضطراً لإخفاء الأمر كي تستطيعوا تناول الطعام، فإن لم تأكلوا ستموتون.

في إحدى المرات أتى سجان وسألنا: "مين مو عاجبه الأكل؟". كانت تلك أول مرة نسمع أحداً يخاطبنا بلهجة لطيفة في صيدنايا، مما أغرى واحداً منا أن يتكلم. أومأنا إليه فأسكتناه لأننا لا نأمن مكر السجانين، استغرقنا بعض الوقت حتى هدّأناه وأجبنا بدلاً منه أن الطعام جيد. في زنزانات أخرى تورط البعض فأعربوا عن عدم رضاهم ودفعوا ثمن ذلك غالياً بمد أيديهم وأرجلهم من الطاقة وتلقي الضربات.

كان الحرمان من الطعام أمراً سهلاً عليهم ولأوهى الأسباب، فإن تأخرت قليلاً في سحب القصعة تتلقى الضرب على يديك ويأخذونها منك وتُحرم الزنزانة كلها من الطعام حتى الغد، وربما ليومين.

كما قلت، تميزت زنزانتنا بوجود ثقب غير مرئي في بابها، كنا نرى منه أنهم يعطون زنزانتين مواجهتين لنا قصعات أكبر وكميات طعام أكثر بقليل. في المهاجع سنعمل على مقاطعة معلوماتنا مع آخرين قالوا إن فيهما سجناء خاصين أو مميزين أو خطرين. هناك شك في أن يكون المقدم حسين هرموش، الضابط المنشق الشهير، في إحداهما.

انقطاع المياه

كانت المياه تنقطع كثيراً، وعندما تأتي كنا نستحم في المرحاض بالماء شديد البرودة هناك. كان الصابون نادراً، فقد يعطون الزنزانة كلها ربع لوح من الصابون.

انقطعت المياه مرتين لمدة طويلة في الزنازين، ومرة طويلة أو مرتين في المهاجع. في المرتين في الزنزانة شارفنا على الموت عطشاً. امتلأ المرحاض بالفضلات وصرنا ننظف أنفسنا بقطع قماشية من قمصاننا. لكن الجيد في الأمر هو أن برازنا كان قليلاً جداً بسبب نقص الطعام!

في إحدى المرات ازداد العطش ووصل إلى درجة غير مسبوقة. في صمت الزنزانات الرهيب سمعنا صوت أحد السجناء وهو يستغيث ببطء: "مي"، فجاوبه ثان من زنزانة مجاورة: "مي"، وردد ثالث من مكان آخر: "مي"، وتجرأ أحدنا فصاح "مي... مي... مي". صار الجميع يصرخون بهذا النداء الخالد! سارع السجانون إلينا، وشعرنا بحضور شخصية مهمة، لعلها مدير السجن أو نائبه، الذي قال: "اخرس ولاك. والله لخليكن شهر بلا مي، والله لتموتوا من قلة المي...". ظننا أن هذا ما سيحدث بالفعل، لكننا صرنا نسمع، بعد ربع ساعة، قرقعة التنكات يحملها السخرة وينزلون بها الدرج إلينا. أمرونا بمد القصعات فمددناها وملأوها ماء. من سوء حظنا في ذلك اليوم، وقد قلت إن القصعات تدور الزنازين دون تحديد، أن تلك التي عندنا كانت مكسورة. تشرشرت نصف كمية الماء على الأرض وشربنا النصف الباقي، ثم قرّبنا وجوهنا من البلاط القذر المبلل وأخذنا نلحسه!!

عندما كانت المياه تنقطع لهذه المدة كانت تتبقى كمية قليلة جداً في التمديدات، فكانت المعركة بين الزنزانات

تحتدم ويفوز فيها من يستطيع الشفط أقوى من خرطوم المرحاض ليجتذب هذه القطرات.
كانت الكثير من المراحيض تتعطل فتُسدّ ويتعثر تصريفها لسبب أو لآخر، وخاصة في الزنازين، فتفيض على داخل الزنزانة. قد يستمر هذا الوضع لأشهر حتى يُخرجهم السجانون يوماً فيضربونهم لأنهم تسببوا بهذا العطل، ثم يقومون بإصلاحه. كُسرت حنفية المرحاض بيد أحد المعتقلين بالصدفة فتعرض لعقوبة وحشية.
في بعض المرات كانت المياه تنقطع بتعمد من الإدارة، وفي مرات أخرى كان الانقطاع اضطرارياً بسبب أذية أصابت خط التمديدات الواصل إلى السجن أو إلى المنطقة. في إحدى المرات كان القطع متعمداً وطال حتى تعبنا من العطش، وكان السجان يريد معاقبة زنزانة مجاورة، لسبب ما، بإغراقها بالماء. يجري ذلك بأن يفتح الشراقة ويأتي بتنكات مياه ويأخذ بسكبها إلى داخل الزنزانة التي لا تحوي بالوعة. هكذا حتى تصل المياه في الداخل إلى مستوى المرحاض، وأرضه أعلى من أرض الزنزانة بحوالي 5 سم، ثم تأخذ بالارتفاع فتدخله وتصل إلى حفرته، وهنا تختلط المياه الملوثة في الحفرة بالماء الذي ملأ أرض الزنزانة وتسبح الفضلات. عندما يفعل السجان ذلك يكون منهمكاً بجلب التنكات ودلقها عبر الشراقة ولا يشاهد ما يجري في الداخل المظلم. في هذه المرة كان في الزنزانة شاب حاذق عمد إلى وضع القصعة على الشراقة من الداخل، فكانت المياه المسكوبة من التنكة تصب في القصعة مباشرة، فيأخذها السجناء ويتناقلونها ويشربونها بسرعة ثم يعيدون وضعها مواجه الشراقة ليستقبلوا الدفعة التالية التي كان السجان يروح ويغدو حاملاً لها، وهكذا. صاروا يشربون بشراهة غير اعتيادية، نتيجة تراكم العطش ولمنع ملء أرض الزنزانة بالماء وما يترتب عليه. عندما أتى السجان بالتنكة الأخيرة اكتشف الأمر فقال: "عم تعبّي مي يا عرصة!!!". ضرب الشاب حتى أدماه ورغم ذلك فقد أحس، وأبناء زنزانته، بالنصر.
نعم، في بعض الحالات كنا نشعر بالنصر! في إحدى المرات، مثلاً، كان وضع النظام سيئاً في الخارج، ووصلت المعارك إلى أبواب سجن صيدنايا، حتى أن قذيفة وصلت إلى داخله. كانوا متوترين وصاروا يفتعلون أي سبب لضربنا. انقطعت الكهرباء عن السجن نتيجة إصابة التمديدات في الخارج بقذيفة فأتى أحدهم وسأل غاضباً: "مين قال ليش مقطوعة الكهربا؟!". لم يكن أحد منا قال شيئاً! كنا في المهاجع وقتها فقلنا: ربما من المهجع المجاور. صار يثبت التهمة على كل المهاجع، ودخلوها واحداً واحداً في حفلة ضرب شديد. رغم ذلك أخذنا نضحك في سرنا ونحن نتلقى الضرب الذي قد يؤدي إلى موت بعضنا، لأننا كنا نعرف أن سبب غيظهم هو أننا، "نحن" الذين في الخارج، نتقدم ونشدد عليهم الخناق.

تجارة الطعام

بدأت هذه القصة منذ آخر أيامنا في الأفرع وانتقلت معنا إلى صيدنايا، ووجدت في مهاجع أخرى. وهي شراء السجناء من بعضهم شيئاً من حصصهم الغذائية وفق عملة هي الخبز الذي ترتفع قيمته أو تهبط بحسب كميته في "السوق"! إذ كانت حصة الواحد اليومية منه تتراوح بين النصف رغيف إلى الرغيف وربع. مرة واحدة جلبوا كمية أكبر، لا أدري لماذا، فكانت حصة واحدنا رغيفين، لكن هذا لم يتكرر.
كان الطعام يأتي، كما أسلفت، بقصعة صغيرة في الزنزانة، وبقصعتين، كبيرة ومتوسطة، في المهجع لأنه يحوي عدداً أكبر. توضع في القصعة الكبيرة كمية من الرز لا تكفي 25 إلى 30 شخصاً في المهجع، وفوقه تُسكب مرقة الشوربة وعدد من حبات البطاطا والبيض. في القصعة الثانية ربما عدس الشوربة نفسها وبرتقال.

يتولى توزيع الطعام في المهجع اثنان، يُختاران بناء على الدقة والنظافة. يكون النزلاء مقسّمين في مجموعات طعامية لسهولة التوزيع، ويتولى كل رأس مجموعة التقسيم بين أفراد مجموعته بشكل يحصل فيه الجميع، في النهاية، على الحصة نفسها. ومن هنا تنشأ التجارة. فالمربى مرغوب لشدة حاجتنا إلى السكريات، لكن البعض قد يريد بيع حصته منه، إن تضمنته الوجبة، وهي في حدود ملعقة، وكانت تباع بما يصل إلى رغيف. بينما تباع حصة الحلاوة برغيف ونصف... كانت باهظة الثمن، وكذلك قطعة البقلاوة في حال تضمنتها الوجبة نادراً. كان الدجاج غالياً أيضاً، وكانت حصة الرز بحوالي ثلاثة أرباع الرغيف، حسب "السوق". ونتيجة الخلافات التي نشأت عن التجارة كان لا بد من تدخل الشاويش لحسم بعض القضايا؛ مثل توحيد الأسعار داخل المهجع وضبط المنافسة!

كان أحدنا تاجراً بالأصل فتوكل عملية التقييم. فمثلاً تأتي برتقالة واحدة لكل المهجع، وأحياناً اثنتان، وقد تكون صغيرة أو كبيرة حسب الصدفة، فكان عليه أن يعيّن سعر حصة البرتقال في هذا اليوم، وهكذا. كان تقييمه معتمداً وكانت التجارة تتم وفق أسعاره. اغتنى البعض وافتقر آخرون! صار المحترفون يبيعون بالدين حتى أن أحدنا حسب رصيده مرة فقال: "عندي بالسوق ربطتين"... كانت هذه ثروة حقيقية! وبالمقابل كان البعض يكثر من شراء الطعام بالدين وتناوله فوراً حتى يقع في عجز ويضطر إلى قضاء أيام جائعاً للتسديد. وهنا تدخل رئيس المهجع أيضاً فحظر التداول مع بعض الأشخاص الذين عجزوا عن إدارة مواردهم بحكمة، فمنعهم من البيع والشراء كي يأكلوا بشكل عادي منتظم.

تطورت التجارة إلى البيع المركّب، كصندويشة حلاوة، مثلاً، أو "طبخة" يجترحها المرء من مكونات الوجبة ويعرضها في السوق، كخلط البيض بالدجاج أو مزجه باللبن المروّب بالماء. كانت هذه المعروضات مغرية ومربحة. ولما منعها الشاويش صارت تباع سراً تحت البطانيات، حتى كُشف الأمر.

ابتدعت بعض المجموعات ما أسمته "مشروع الطعام"، وهو أن تقتصد في الأكل لمدة وتراكم السلع ادخاراً وشراء، حتى يوم محدد تشتري فيه بالدين كذلك، ويكون يوماً متميزاً بكمية طعام متخِمة! كان عرساً وكأنك خرجت من السجن.

آخر ما أذكره في موضوع الطعام هو الدور على القصعة، فبعد توزيع الطعام يأخذ أحدنا القصعتين ويمسحهما بعناية فائقة لتحصيل بقايا عالقة من أي شيء، سمنة أو ملح، ثم يتناولها مع "فتة" خبز. كان هذا الأمر دورياً بيننا وكان محل تنافس.

مهما بلغت درجة الأخوّة وحياة السجن المشتركة والإيمان بقضية الثورة لا بد أن تحصل الخلافات حول أشياء تافهة لكنها هنا أساسية، كحصة الطعام أو المساحة التي يحتلها الواحد. يصعب الإيثار في أحوال كهذه إلا عند من امتلك سوية رفيعة من الأخلاق.

من يومياتنا في المهجع

في حال كان باب الجناح مفتوحاً والعساكر يتحركون بين المهاجع كان علينا أن نتخذ الوضعية "جاثياً" ووجوهنا إلى الجدار المقابل للباب فربما فتح أحدهم الطاقة، فإن رأى أنك ستأخذ وضعيتك المطلوبة الآن سيعتبر أنك لم تكن مستعداً وستصيبك عقوبة شديدة جداً جداً. عندما يُغلق باب الجناح كنا نتحرك قدر ما نستطيع ونمارس ما أمكن من الرياضة.

الصلاة في صيدنايا ممنوعة حكماً، فردية كانت أو جماعية، وعقوبتها شنيعة. فإن كان المصلي في المهجع عاقبوه

بالنزول إلى الزنزانة، وإن كان في الزنزانة أصلاً ربما قتلوه. ولذلك كنا نصلي سرّاً كما قلت، بأعيننا أو بحد أدنى من الحركة، وأحياناً نصلّي بشكل طبيعي ليلاً بعدما نأمن أنهم ناموا. كنا نصوم رمضان وسواه، بل إن حياتنا هناك كانت صياماً مستمراً، ففي كثير من الأحيان كانت وجبة الطعام الوحيدة تصل بعد المغرب. لم يكن الصوم خطِراً كما هي حال الصلاة الموحية بالتدين السنّي.

كان يتم اختيار الشاويشية (رؤساء المهاجع) من قبل السجانين، وكان منهم من يعامل زملاءه من السجناء بشكل سيئ أو بشكل راق جداً. عندما يدخل السجانون المهجع كان علينا أن نتخذ الوضعية جاثياً في عدة أنساق، ويديّ كل منا على عينيه، ووراءنا يكون رئيس المهجع بالوضعية ذاتها، وإلى يمينه المعاقبون وهم باللباس الداخلي. كانوا يبدأون بضربه وربما يقتلونه، ثم يتولون أمر المعاقبين أو أي شخص منا صدرت عنه حركة وهم موجودون أو قرروا ضربه دون سبب.

في البداية كان رئيس مهجعنا شاباً جيداً من القلمون، ثم أحضروا من الزنزانات شخصاً اسمه شادي سعيد كان مطرباً شعبياً من الرمل الجنوبي باللاذقية، من أصل حلبي. وكما أخبرنا هو فقد أسهم في استدراج مساعد في المخابرات لصالح إحدى مجموعات الجيش الحر مقابل المال فقط، وكُشف الموضوع لاحقاً فقبض عليه. عندما كنا في الزنزانات كنا سمعنا حواراً بين أحد السجانين وبين شادي الذي عرّف عن نفسه بأنه مطرب، ولما طلب منه السجان أن يغنّي موالاً غنّى لبشار الأسد. عندما أصعدوه من الزنزانات كان وضعه بائساً فأعطيناه ملابس مما فاض عن الزيارات ورغم ذلك تنمّر علينا وأخذ يهددنا عندما صار شاويشاً. كنا قد وضعنا نظاماً لتوزيع الزائد من الملابس حسب الحاجة، فالعاري أولى ممن يريد الحصول على الدفء، وحين يكتفي الجميع ربما يبيع المقتدر كنزة زائدة برغيفي خبز مثلاً.

يغلب على التجمعات في المهاجع أن تكون على أسس مناطقية، كالشوام والأدالبة واللواذقة، دون أن تخلو المجموعة من شخص من منطقة أخرى لسبب ما. وكانت اللهجة المعتمدة للسجانين هي اللهجة العلوية، لكننا كنا نستطيع تمييز العلوي بالفعل عمّن ينتحل هذه اللهجة استقواء، كما فعل شادي نفسه ليصير شاويشاً. وباعتبار أنه لم يمر علينا سجين غير سنّي، كان هذا يثير ردات فعل فظيعة ولكن مكبوتة في نفوس السجناء.

ربما يأتي السجان ليلاً فينادي: "عرصات المهاجع!" كما هي العادة، فيرد رؤساء المهاجع: "حاضر سيدي"، فيقول: "سامع صوت"، ولما ينكرون ذلك يجيب: "أنا ما بكذب!! سامع صوت! بكرة بدي خمسة من كل مهجع!". إن امتنع رئيس المهجع عن تقديم القربان سيتعرض لضرب شديد وربما مميت، ولذلك كان يختار بالدور. كان على الشاويش أن يختار لك "الجريمة" أيضاً، لأن السجان سيسألك: "شو عملت ولا؟!!" وعليك أن تجيب بشيء فعلته أو لم تفعله؛ كتجاوز خط الحمام باتجاه المساحة الباقية من المهجع، أما الاقتراب من باب المهجع فهو جريمة كبرى، وكذلك الكلام أو الهمس. يجب أن تختار إحدى هذه المخالفات لتُعاقب عليها عقاباً ربما يصل إلى الموت.

في إحدى المرات كنت بين الذين جاء دورهم وتعرضنا لتعذيب وحشي بأنبوب "الأخضر الإبراهيمي" الذي كان عريضاً هذه المرة، بقطر حوالي 5 إنش، ضربوني به حتى على رأسي وأغمي عليّ أكثر من مرة. لم يكونوا يضربون المجموعة سوياً بل كانوا يأخذوننا بالدور، واحداً واحداً، بينما هم مجموعة. وبعد الانتهاء من ضرب كل واحد كان عليه أن يزحف فينحشر في المرحاض. عندما وصلت إلى هناك كان أحد رفاقي قد سبقني، وأذكر أننا كنا ننزف فتختلط دماؤنا في الحفرة، حتى خرجوا فأقبل علينا زملاؤنا يمسحوننا.

في إحدى المرات، بعد أن انتهوا من ضرب المختارين للعقوبة قرروا أن على هؤلاء قضاء الأيام القادمة في الحمام، فإن خرجوا منه سيتعرض المهجع كله للعقاب. التزمنا بذلك طالما كان باب الجناح مفتوحاً، وصرنا نُخرج زملاءنا من الحمام قليلاً عندما يُغلق. حتى هذا لم يكن آمناً تماماً، ففي بعض الأحيان كان السجانون يغلقون باب الجناح بصوت مسموع ويبقون في الداخل ليتلصصوا على ما نفعل. كانت العصافير تساعدنا على كشفهم إذ تطير عند حركتهم إن جرت في النهار.

في المهجع تعرفنا على شخصين قضيا ثمانية أشهر في الزنزانات. كان شكلهما مرعباً؛ كان لون جلدهما أسود بسبب آفة ما، غطت جسميهما تقرحات الجرب بشكل كامل، وزن الواحد منهما لا يتجاوز 30 كيلوغراماً، كانا يرتجفان باستمرار، منفصلين عن المحيط تقريباً وعاجزين عن التعبير السليم، وكان بعض الشباب من المهجع يعتنون بهما حتى توفيا. عرفنا أنهما من بقايا جماعة الإخوان المسلمين العائدين من العراق وفق مصالحة لم تمنع من إلقاء القبض عليهما بعد الثورة.

كما حصل في الزنزانات، انقطعت المياه في المهاجع أكثر من مرة. وكنا حينها نصعد إلى الخزان فوق الحمام ونميله لنحصل على ما بقي من ماء ممزوج بالرمل. في إحدى المرات طال القطع وبلغ منا العطش مبلغاً شديداً فشاع بيع الماء أيضاً. كانوا يحضرون لنا كمية قليلة جداً من الماء تكون حصة الواحد منها كأساً فقط، فصار البعض يبيعه لقاء رغيفين مثلاً يعيش عليهما دون شرب. حاولنا استصدار "قانون" يمنع الإتجار بالماء فلم يستجب لنا رئيس المهجع.

كانت المياه في المهجع باردة للغاية، ولذلك مرت علينا أشهر دون أن نجرؤ على الاستحمام بها، وكانوا وقتها لا يأخذوننا إلى الحمام. يتم الخروج إلى الحمام بالآلية التالية: يمرّون في الصباح فيأمروا الجميع في المهاجع بالتعري استعداداً للاغتسال. بعد ساعة أو ساعتين يعودون لإخراجنا بوضعية القطار وأثناء ذلك يضربوننا. عندما نصل يُدخلوننا، كل اثنين أو ثلاثة، إلى حمامات دون أبواب، قد يكون الماء المندفع من الدوش فيها شديد الحرارة أو بارداً. لا نكاد نبدأ الاغتسال حتى يصدر الأمر بخروج الجميع الذين يهرولون بسرعة مما يؤدي إلى انزلاق البعض وسقوطهم وتلقيهم ضرباً وحشياً. نأخذ وضعية القطار نفسها ويعيدوننا وسط التعثر والضرب الذي يغدو أشد إيلاماً على الجسم المبلول.

أذكر أننا خرجنا للاستحمام مرتين عندما كنت في صيدنايا، كانت الثانية منهما طويلة إذ استمر الحمام لثلاث دقائق أو أربع.

عند أول دخولنا إلى المهجع أخبرونا أننا نستطيع أن نشتري "ندوة منظفات" بالنقود الموجودة لدى كل منا في "الأمانات"، فاشترينا كميات ضخمة من المنظفات احتياطاً للمستقبل. كانوا يبيعوننا إياها بحوالي خمسة أضعاف سعرها الحقيقي في الخارج ولم نكن نملك حق الاعتراض. فرغت أماناتنا تقريباً بسبب الكمية والأسعار، لكنها كانت فرصة لم تتكرر.

كانت لحظاتنا الأجمل حين نبدأ بصلاة الفجر ثم بأذكار الصباح. كنت أقرأ أورادي وأنا أمشي جيئة وذهاباً قبل قدوم السجانين.

كنا نتبادل تحفيظ القرآن، وكان من يتقن التجويد يعلمه للآخرين. وفي حال لم يكن أحدنا يحفظ السورة كاملة كنا نجمع آياتها من بعضنا حتى تكتمل، وإذا حوّل أحدنا إلى المشفى أو الفرع لإعادة التحقيق معه كان أول ما يعود به هو السور الجديدة أو استكمال الثغرات في القديمة. أتذكر أننا جمعنا سورة "محمد" عدا آخر آيتين منها

لم نعرفهما، فلما حولوني إلى المشفى 601 اجتمعت هناك بمجاز في القرآن الكريم على يد الشيخ بكري الطرابيشي، المختص في القراءات، فراجعت معه سورة "آل عمران" وسألته عن الآيتين الأخيرتين من سورة "محمد" وعدت لزملائي بهما.
في أحد الأيام كان أحدنا مكتئباً بشدة وإذ به يفاجأ بآية متبقية من آثار سجناء سابقين قبل الثورة، تقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. حين قرأها صار شخصاً آخر بسبب ما اعتبره رسالة ربانية خاصة.
كان النوم بإيعاز. وفي إحدى المرات قال أحد السجانين لنا "ناموا" ففعلنا. يبدو أن زميله لم يسمع الأمر فلما رآنا نائمين توعدنا بالعقوبة غداً. في اليوم التالي أتوا فضربونا ثم أمرونا بإخراج البطانيات وعمدوا إلى إغراق أرضية المهجع بالماء لمدة شهرين. استشهد ثلاثة منا نتيجة ذلك، أما المهجع المجاور فكانوا قد أمروا سجناءه بالبقاء بملابسهم الداخلية فقط، فاستشهد منهم عدد أكبر.
من اللحظات الممتعة صدور الأمر بالنوم. مد البطانيات بهدوء ثم الإغفاء الذي كان أجمل ما في اليوم بسبب الهروب الذي يمنحنا إياه عن واقعنا. كنا نتمنى ألا نستيقظ أبداً.
كانت إشاعات العفو كثيرة، وكنا نصنع بعضاً منها بتفسيرنا الأحلام أو نتيجة استقرائنا الواهم لبعض المؤشرات.
عاد أحدنا من المشفى بقارورة دواء وسمحوا له بإدخالها. وبعد أن فرغت صار يستخدمها لتخزين الشاي، ولما اكتشفوا ذلك ضربوه بشكل شنيع حتى شارف على الموت لولا أن نجّاه الله.
انتشرت الأمراض في المهاجع وتفشى الجرب. لم يكونوا يعطوننا أي دواء. سجان واحد فقط كان يرمي لنا ببعض حبوب مضاد الإسهال أحياناً. كان معنا سجين قادم من الفرع 215 الشهير، وهناك التقى بسجين طبيب جلدية قال له إن بعض الأمراض الجلدية التي سرت بين المعتقلين لم يقرأ عنها في المراجع. فمثلاً كان زميلنا هذا مصاباً بمرض يدعى "تساقط الأطراف" بنتيجة الغرغرينا. كان البرد في سجن صيدنايا شديداً إلى درجة أنك لو مشيت حافياً ربما تلتصق قدمك بالأرض وكأنك تضع يدك في ثلاجة، ورغم ذلك كان يمشي حافياً بسبب التهاب رجليه. كان ذا "واسطة ثقيلة" ولذلك كانوا يعطونه ضماداً جديداً كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع! عندما كنا نغيّر له كنا نرى أن رجليه متفسختان وكانت تنبعث منهما رائحة جيفة. في إحدى المرات فك إصبع قدمه ورماها دون وجع وقال: "خلص ماتت".
قبل مؤتمر جنيف2، الذي عقد في الشهر الأول من 2014، تحسنت المعاملة وتراجع الضرب حتى انعدم تقريباً. شغّلوا التدفئة ومرّ علينا مدير السجن في جولة وقال: "كيف الوضع يا ابني؟ عم تدفوا هون أكتر من بيوتكن ما؟!".
وفي أحد الأيام أمرونا أن نخلع ملابسنا وندير وجوهنا إلى الحائط، ومرّ الطبيب على كل المهاجع ليقدّر درجة تفشي الجرب، ووزعوا علينا "البوفيدون" وحبوب الالتهاب التي صاروا يرمونها لنا يومياً بعدد يساوي عددنا. كانت كفيلة بالقضاء على 70-80% من التقيحات والتقرحات في جسم كل منا. استمر الوضع هكذا حتى فشلت المحادثات. كنت قد خرجت وقتها لكنني علمت لاحقاً أن المعاملة عادت أسوأ من ذي قبل بكثير.
بعد مقتل مدير السجن طلعت محفوض في 2013 ساءت المعاملة. قبلها لم يكن هناك "عرف" أنه يجب وجود قتيل يومياً في كل مهجع أو جناح على الأقل، لكن بعد ذلك صار طبيعياً أن يفتح السجان باب الجناح صباحاً ويسأل: "مين عنده فطسان ولا؟" فيرد رؤساء المهاجع: "واحد... اثنان" وهكذا. بعد الظهر يأتون ليأخذوا معلومات

الشهيد بالسؤال: "شو اسمه ابن الشرموطة؟" ثم يأمرون رئيس المهجع: "حطه ببطانية وزتّه لبرّة"، وهكذا كنا نفعل. عندما توضع الجثة خارجاً كانوا يركلونها أحياناً ويسحبونها بحقارة. كانوا حاقدين حتى على الشهداء.

الزيارات

للوهلة الأولى تبدو الزيارة للسجين الجديد فرحة برؤية ذويه والاطمئنان عنهم ومحاولة معرفة بعض المعلومات، لكنه يكتشف لاحقاً أنها مصدر رعب بسبب الضرب الذي يصاحبها ذهاباً وإياباً وقد يؤدي إلى الموت.

تجري الزيارات في أيام الأحد والثلاثاء. في الغالب كان يوم الأحد للمعتقلين العسكريين والثلاثاء للمدنيين، لكن ذلك لم يكن قاعدة. كانوا ينادون على أسماء من ستأتيهم زيارة في هذا اليوم منذ الصباح، ثم يجمعون المُزارين من كل جناح ويقتادونهم بطريقة "القطار"، راكعين ورأس كل منهم موجه إلى الأرض، مع اللبط والضرب. كان تعليمات السجانين تقضي بالعجلة دوماً، وكنا ضعيفي الأجسام حركتنا واهنة، بينما كانوا نشطين بأجسام لائقة. كان المشي من أكبر الهموم التي نحسب حسابها قبل الزيارة، إذ كنا لا نتحرك تقريباً في المهاجع، ولذلك أخذنا نمارس بعض الحركات الرياضية الخفيفة في أيام السبت والاثنين، تحسباً لورود زيارة لأحدنا. ففي أغلب الأحيان كنا ندوخ ونقع أثناء المشي بسبب انخفاض الضغط، وكانوا يضربوننا حتى ننهض ونتابع.

كانوا يجمعوننا في غرفة كبيرة فارغة شديدة البرودة للتحضير للزيارة. في الوضعية جاثياً، وجوهنا إلى الجدار، ويمنع الكلام الذي كان السجناء يتحينون الفرصة لتبادله، طالما أنهم قادمون من مهاجع مختلفة، لمعرفة زملاء السجن ومن مات منهم وآخر الأخبار. كانت عقوبة الكلام هي الضرب الشديد ولكننا لم نستغن عن المحاولة. في الغرفة أيضاً جبل من الأحذية والشحاطات، هي حصيلة ما خلعه السجناء عند وصولهم لأنهم سيقضون المرحلة اللاحقة في السجن حفاة. وفي وقت الزيارة يتيحون لنا استخدام أي زوج منها لنرتديه أمام ذوينا. وإذا كان السجين عارياً أو شبه عار، كما هي حال الكثيرين، كانوا يُلبسونه البدلة الزرقاء التي هي اللباس التقليدي للسجن، وبعد انتهاء الزيارة يستردونها. في الغرفة نفسها يجمعون المرضى لإرسالهم إلى المشفى، وكذلك في إحدى زواياها أربع أو خمس، وأحياناً عشر، جثث.

يدخل أحد السجانين فيحلق للمزارين على النمرة صفر (زيرو). وعندما يأتي دورك للزيارة يقتادون خمسة بطريقة "القطار" أيضاً. بين الغرفة وشبك الزيارة ممر يأمرونك فيه برفع ظهرك بعد أن كنت راكعاً ويداك على عينيك. تنهض الآن استعداداً لرؤية أهلك وتتلقى تعليمات الزيارة: يمنع أن تعطي أي معلومات عن وضعك في السجن، وفي إحدى المرات أمرونا أن نتكلم عن وضعنا هنا بإيجابية، كما يمنع أن نتحدث عن أي شيء حصل معنا وعن وضعنا القانوني وعن أحكامنا التي لا نعرفها أصلاً!

كان يمنع أيضاً أن تذكر أسماء! يمنع مثلاً أن تقول: كيف حال أخي محمد أو أختي ميساء؟! يحظر عليك ذكر أي اسم، عليك أن تسأل بالمجمل: كيف إخوتي؟ كيف عماتي؟ كيف أخوالي؟

في ألطف الأحوال كان السجان يحذرنا من تجاوز التعليمات بعبارة: "مرجوعك لعندي وحسابك بعدين"، أما غالباً فكانوا يقولون: "ليكها أمك برّة... بعمل فيها كذا وكذا عالشبك".

تفصل بين السجن والعالم الطبيعي ستارة زرقاء تقطعها فتصبح في غرفة الزيارة. يُخرجك السجان، الذي تستطيع رؤيته الآن وربما مطابقة شكله مع أحد الأصوات التي سمعتها سابقاً. يضع يده على كتفك وهو يقتادك برفق.

يقف إلى يمينك، ويقف آخر بجوار أهلك، ويمشي ثالث في الممر بين الشبكين. أنت مسؤول عن كلامك وكلام ذويك، فلو أخطأوا ستتلقى أنت العقوبة لاحقاً. مدة الزيارة دقيقتان، وفي حال وجود واسطة ربما تصل إلى خمس دقائق، فإن كانت الواسطة أثقل ربما فتحوا الطاقة وسمحوا لك بتقبيل أهلك. وعندما ينتهي الوقت يخبرك السجان: "ودّع أهلك وقللن إذا بدك شي"، فتوصي ذويك أن يحضروا لك ملابس ومناشف في الزيارة القادمة. كنا حريصين على الحصول على ملابس داخلية بيضاء كي يظهر عليها القمل في الظلام.

يخرج بك السجان نفسه. وبينما يودعك أهلك بأنظارهم يهمس في أذنك: "شد ظهرك... اعتز بنفسك"، وبمجرد أن تتجاوز الستارة الزرقاء يشوطك بقدمه دون سبب فيقذفك أمتاراً إلى الأمام. عليك بعدها أن تخر ساجداً وتخلع ما كنت لبسته بقدميك وتنتظر كيس الأغراض الذي أحضره الزائرون إذ سيُرمى على رأسك ويستقر أمامك. يأمرك السجان: "واقفاً"، وهنا عليك أن تنهض وتفهم أن المقصود "راكعاً" طالما أنك عدت إلى حياتك "الطبيعية". وأنت راكع يتناولون إبهامك ويبصمون به على ورقة استلام الأمانات. كان الحد الأعلى من المال الذي يستطيع الأهل إيداعه هو خمسة آلاف ليرة، وفي حال دخل المبلغ "الأمانات" يصعب على أحد التلاعب فيه، لكنه يبقى مجمداً دون فائدة طالما أن الإدارة لا تفتح لك باب شراء الطعام أو الدواء أو المنظفات.

كل هذا في حال كان سلوكك أثناء الزيارة مناسباً، أما لو ارتكبت مخالفة فكانوا يتناولونك بالضرب وأثناء اقتيادك إلى المهجع يختلسون الأمانات كجزء من العقوبة، وفي حال كانت المخالفة أكبر ربما حرموك من تلقي الزيارات في المستقبل أو تلقيت ضرباً يؤدي إلى الموت.

بعد أن تنتهي الزيارة كانوا يعطون الواحد منا ما جلبه أهله من ملابس، وكان عليه أن يحملها وسط الضرب إلى باب المهجع حيث تخضع للتفتيش، فكانوا يسرقون كل جديد منها ويعطوننا ما هو مستعمل سابقاً فقط.

كانت الزيارة كابوساً، وكان السجانون يتفننون في ما يبتدعونه من مواقف ذات خلفيات مناطقية وطبقية. كانوا يسألوننا "أنت من وين؟" فإن أجبت أنك من دمشق، مثلاً، كان غضبهم يثور لمشاركتك في الحراك دون اضطرار مادي، فالشوام جميعاً أغنياء في نظرهم. ثم يسألك عن حيّك فكلما كان أغنى كنت تتلقى ضرباً أشد. رغم ذلك كان أحد زملائنا يتسلى بالمبالغة، فإن سئل عن ثمن منزله ضاعفه عدة مرات، أو عن أملاكه زاد فيها ليثير غيظهم الذي لم يكن يتأخر أبداً عن الاستجابة.

حتى على مستوى اللهجة تعرضت مراراً للضرب وهم يسألونني عن لفظ البرتقالة. كان عليّ أن أكف عن إبدال القاف همزة كما هي لهجتنا، وحين كنت أنطق القاف بوضوح كانوا يكفّون عني.

في حين كان الأهل يطيرون من الفرح عندما يستطيعون الحصول على موافقة على الزيارة، كان الأمر لدينا معكوساً، حتى أننا وصلنا إلى درجة تبادل التهاني في يوم الزيارة إن لم ينادِ أحد أسماءنا.

في إحدى المرات جاءت أم لزيارة ولدها. سألت عنه فأجابوها إنه "مهمة". أي مهمة هنا؟!! في الحقيقة أنها كانت تقف أمام سيارة المشفى التي تحمل جثته.

إلى الزنزانة مرة أخرى

كانت "المهمة" في عرف السجن هي مغادرته مؤقتاً إلى المحكمة أو المشفى أو أحد الفروع الأمنية لإعادة فتح التحقيق والعودة، إذ يبقى المرء في هذه الحالة على ذمة السجن وفي سجلاته حتى لو غاب سنتين.

لما كنا في المهاجع فُتح ملف جديد ورد فيه اسمي في المخابرات الجوية واستدعيت للتحقيق، حيث قضيت خمسة أشهر حصلت خلالها ضربة النظام بالسلاح الكيماوي على الغوطة في آب 2013. في آخر شهر أيلول التالي انتهت "مهمتي" وأعادوني غلى صيدنايا. كان العرف في حالات كهذه أن يعود السجين إلى المجموعة التي كان معها في المهاجع، لكن المساعد المسؤول قال: "شو يا فقير؟ شو صاير بالشام؟" فأجبت أنني لا أعلم وأن شيئاً لم يحدث فقال: "كذاب"، والتفت إلى العناصر قائلاً: "نزلوه عالزنزانات خلوه ينسى".

عندما أدخلوني إلى الزنزانة كان فيها ثلاثة وضعهم يشبه وضعي، عائدين من "مهمات" مختلفة، وكان القرار أن يقضوا مدة تأديبية في الزنازين لينسوا الأخبار التي سمعوها في الخارج فلا ينقلوها إلى المهاجع. قضيت هنا مدة قاربت الشهر ونصف في ظروف سيئة جداً، إذ كان سقف الزنزانة يدلف وكان البرد شديداً ولم تكن لدينا بطانيات. كانوا يحاسبوننا حتى على صوت التنفس أو الشخير، فإما أن يقدّم رئيس الزنزانة المتهم بارتكاب هذه المخالفة ليُعاقَب، أو يناله العقاب هو بالذات أو يعم جميع أفراد الزنزانة.

في نهاية هذه المدة ناداني السجانون ليصعدوا بي إلى المهجع وسألوني: "شو كنتو عم تحكوا جوّة؟" فأجبت أن الكلام ممنوع. كانوا يدخنون وقتها فأخذوا يطفئون السجائر في جسمي وأنا راكع ثم سألني أحدهم: "ما نسيت شو كان صاير بالشام؟" فأجبت إنني نسيت طبعاً، بل إنني لم أكن أعرف شيئاً بالأصل... فضربني ضربات خفيفة وصعدوا بي إلى المهجع.

أحد زملائي في هذه الزنزانة كان من المبنى الأبيض، وقد وضعوه هنا مؤقتاً لينسى ما قد يكون عرفه من أخبار، وكان أول من أكد لي تنفيذ حالات الإعدام في حق المعتقلين من سجن صيدنايا في المبنى الأبيض. قبلها كنا نعتقد أن الموت هنا يقتصر على ما شاهدناه من الضرب والتعذيب والمرض وآثار الجوع.

أما رئيس هذه الزنزانة فكان شخصاً فظاً من ريف حمص. ولما سألني عن تهمتي وقلت إنها رئاسة تنسيقية قال لي إن عقوبتها هي الإعدام في العادة. اعتزلت في المرحاض وحيداً وعجزت عن الأكل إلا بصعوبة. صرت أتخيل كيف سيسوقونني للإعدام. أيقنت أنني لن أرى أهلي ثانية. انحصر تفكيري في ما بعد الحياة وصرت أستغفر الله على ما اقترفته في عمري. أخذت أتخيل لحظاتي الأخيرة، هل ستكون رمياً بالرصاص أم شنقاً؟ كنت أتخيل أنني لن أموت مهما كانت الوسيلة، وأنني سأنهض حياً من تابوتي وأهرب عائداً إلى الحرية. تناهبتني خواطر كثيرة حتى ناداني رئيس الزنزانة وسألني عن سبب إهمالي الطعام فأجبته: "مو محرزة ما دام رح يعدمونا". سألني عن مصدر معلوماتي فقلت إنه هو بالذات! فتضاحك وأنكر جدية ما كان قاله سابقاً، وظل يحاول معي حتى أكلت.

في ما بعد سأعرف أن كلامه صحيح، إذ حُكِم على رؤساء التنسيقيات بالإعدام حتى لو كانوا سلميين، بسبب مسؤوليتهم عما أسمته السلطة "إحداث الشغب".

الإعدامات

مرتان في الأسبوع كانوا يأخذون الناس إلى "التسفير"، أي الإعدام. كانوا ينادون بعض الأسماء في المساء لم نعرف لماذا. ظننا في البداية أنها عملية نقل، ولا بد أنها ستكون إلى مكان أفضل إذ لا يوجد أسوأ من صيدنايا. ربما إلى سجن عدرا. كنا نغبط من نودي اسمه ونحزن على أنفسنا، ونوصي من نال "التسفير" بالاتصال بأهالينا من سجن عدرا الذي يحوي هواتف، ولكن مرت أوقات طويلة وذهب الكثيرون دون أن يخبرنا أهالينا الزائرون أن أحداً اتصل بهم!

كانا يأخذون بنقلهم بالسيارات في حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً، تنطلق سيارة ثم تأتي أخرى بعد عشر دقائق لتحمل آخرين، وهكذا طول الليل حوالي عشرين مرة. أخذنا وقتاً حتى استنتجنا أنها سيارة واحدة، أو اثنتان، تغدو وتجيء بين المبنى الأحمر والمبنى الأبيض الذي يبعد حوالي 200 متر ويجري فيه الإعدام.

كانوا يجمعونهم في أحد المهاجع بجوارنا في الطابق الأول الذي ربما يباتون فيه ليلة. وكان عددهم يتراوح بين الخمسين والثلاثمائة بحسب قوائم التنفيذ الواردة. كانوا يضربونهم بوحشية وكان هذا أمراً غير مفهوم لنا على الإطلاق، فلماذا تضرب مقبلاً على الإعدام؟!

الليلة الأخيرة

في أحد الأيام كانت مجموعتنا قد نظّمت "مشروع الطعام" الذي أشرت إليه. يومها صنعتُ فتة من الخبز بالبرتقال والمربى، مع أحد زملائي، وكانت لذيذة للغاية. نمنا ليلتها بسكينة واطمئنان، سعيدَين جداً بعد أن شممنا في هذه الوجبة رائحة حرية. في الصباح التالي سهوت بعد الصلاة فرأيت في المنام أنني استحممت وصببت على جسمي ماء فنزل مني سواد وغار للأبد. حدثت أحد زملائي بالحلم وتفاءلنا. بعد ساعتين أدخلوا الخبز ونادوا اسمي واسم زميل الوجبة الأخيرة وثالث من "أبناء دعوتنا" وأخذونا إلى مهجع جمعوا فيه سجناء آخرين. لم يكن اليوم يوم زيارة فظننا أننا ذاهبون إلى الإعدام، لكنهم أخذونا إلى غرفة تحوي بعض المساعدين. كنا راكعين مطمشين كالعادة فأمرنا أحدهم أن نرفع ظهورنا وننظر بشكل طبيعي لأن "السيد الرئيس" عفا عنّا. سلّمونا أماناتنا ثم اصطحبنا أحدهم إلى باب السجن لإخراجنا وهو ينصحنا بالابتعاد عن المشاكل والاستمتاع بحياتنا. وأثناء ذلك أخبرنا أن على كل منّا دفع مبلغ 1200 ليرة غرامة مستحقة للسجن. كان هذا كذباً بطبيعة الحال طالما أنه لا يوجد إيصال، ولكنني سارعت إلى الدفع من الأمانات التي معي عنّا، نحن الخارجين الثلاثة، معتبراً ذلك نوعاً من "الحلوان". أخذ السجان المبلغ وأردف: "أنا متأكد من أنكم إرهابيون وستعودون إلى الإرهاب. لقد أخطأ السيد الرئيس بالعفو عنكم، بس يلا ماشي الحال"!

شهادة أبو أنس الحموي



قبل أن أبدأ بسرد قصتي أتمنى من أي إنسان يستطيع أن يفعل أي شيء للمعتقلين ألا يقصر في ذلك أبداً، لأن وضع المعتقلين في السجون السورية سيئ للغاية وصعب جداً. من يركز على أن النظام يقصف السوريين ويقتلهم محقٌّ بلا شك، لكن ذلك جزء بسيط من الظلم الذي يمارسه داخل السجون حيث تجري أشياء مريعة لا تُصدّق ولا يمكن أن يتخيلها العقل. أتمنى أن نتمكن من إيصال الصورة الحقيقية وألا يتهمنا أحد بتضخيم الأمور، إذ يصعب على أحد الاقتناع بأن ما سأسرده موجود فعلاً، ولذلك سيعتقد البعض أن كلامي مجرد وهم. وفي الواقع أننا مهما قلنا لن نستطيع تجسيد صورة ما يجري إلا لمن عاشها.

الاعتقال والتحقيق

كنت قد تجاوزت ستة عشر عاماً من عمري، حائزاً للتو على شهادة الثانوية العامة بمعدل 90%، عندما اعتقلتني إحدى المفارز. كان نمط الحياة الذي رباني عليه والدي هو المدرسة شتاء ومعهد القرآن الكريم في الصيف، فكانت معرفتي بالعالم الخارجي تساوي الصفر. كنت قد شاركت في المظاهرات ضد النظام في منطقتنا ولكنني بعيد تماماً عن السلاح ولا أجيد استخدامه. وبسبب أن عدداً كبيراً من أقاربي شاركوا في العمل المسلح تم اعتقالي في 27 آب 2014.

حُوّلت إلى فرع الأمن العسكري في محافظتي وهناك صاروا يوجّهون لي تهماً أسمع بها لأول مرّة؛ من أنني قمت بضرب حاجزين لجيش النظام وزرع عبوة ناسفة استهدفت ضابطاً. لم تكن لي علاقة بكل هذا ولكن مسيرة الاعتقال العشوائي معروفة؛ إما لأنك لم تعجب العسكري أو بسبب تقرير يكتبه أحد المخبرين لإحدى الجهات الأمنية لسبب شخصي. ثلاثة أرباع الذين صادفتهم في المعتقلات لم تكن لهم علاقة بالثورة لا من جهة المظاهرات ولا في التسليح. ولم أقابل مسلحين إلا من "الشبيحة" الذين كانوا يقاتلون في صف النظام فتجاوزوا حدوداً معينة مما أدى إلى سجنهم. أما من مسلحي الثورة فلم أقابل في المعتقل إلا نادراً.

في الفرع قال من استلمني: "اخلع ثيابك" فخلعت الكنزة حتى أمرني بخلع البنطال. كان الوضع الذي يجلس فيه المعتقل هو الوضعية العسكرية "جاثياً" التي لم أكن أعرفها ببساطة. صار يصيح: "جاثياً... جاثياً" وأنا لا أعرف ما الذي عليّ فعله. أخذ يضربني فقلت: "قل لي كيف أتصرف وسأفعل... لماذا تضربني؟". فأجاب: "أوَتردّ في وجهي أيضاً!" وعاود ضربي. أمرني بخلع ملابسي الداخلية فلم أستوعب الأمر! كان الأمر جديداً وغير معقول لي، لكنني استجبت في النهاية من شدة الضرب. أحسست بالخجل الشديد والانزعاج عندما كشفت عورتي، بينما كان مشغولاً بتفتيش ملابسي.

قادني أخيراً إلى مكان مجهول سأكتشف أنه المنفردات في الأسفل. أُدخلت إلى "المنفردة" فيها شخصان قبلي؛ أحدهما منذ 47 يوماً والآخر منذ 13. كانت مساحتها متراً ونصف طولاً، ومتراً واحداً عرضاً، وفي آخرها حنفية وحفرة مرحاض. كان هناك صحن أو طاسة لجميع الاستعمالات؛ يضعون فيه الطعام ويستخدم للشرب كما للغسيل بعد قضاء الحاجة. لم أستطع أن آكل أو أشرب منه ليومين بسبب ذلك، وبعد ذلك لم أجد حلاً وتنازلت مضطراً.

بينما كنت أنتظر دوري في التعذيب، في أول أيامي هنا، سمعت صوت امرأة يجري تعذيبها وهي تصرخ مستغيثة تناشد المحقق: "كرمال الله يا سيدي... التوبة يا سيدي"، وبعدها سمعت صوت امرأة أخرى. اقشعر بدني وارتفع

الأدرينالين في دمي، أريد أن أفعل شيئاً. وعندما أدخلوني وضربوني لم أهتم لما يحدث لي بقدر ما كنت أتذكر صوت "الحرمة". عندما أعادوني إلى الزنزانة حكيت لزميليّ فيها ما سمعته وأنا في غاية الانفعال. ضحكا وأخبراني أن في الفرع من الموقوفات ما يساوي نصف عدد المحتجزين الرجال. في ما بعد صرت أرى هؤلاء النسوة عندما يصطحبهن السجانون إلى المراحيض القريبة منا ليقضين حاجتهن مرة في اليوم. عندما رأيتهن يهرولن والسجان يضربهن شعرت أن سجني لا شيء. صار التعذيب أهون عندي من فكرة أن هذه المرأة قد تكون إحدى قريباتي وهي تتعرض لهذه المهانة والتعذيب.

استدعيت للتحقيق في اليوم التالي. أنكرت كل التهم الموجّهة لي. في البداية حاول المحقق إقناعي بالاعتراف دون ضرب. وفي الجلسة الثانية ضربني قليلاً. وفي الثالثة "نفد صبره" فأخذوا يضربونني بالعصي وبأنابيب التمديدات الصحية المعدنية بعرض 3 إنش، وبالكرباج وهو نوعان؛ الأول مكوّن من نحاس رباعي ملفوف بلاصق والثاني جزء من دولاب سيارة. عُذِّبت كذلك بالفلق والكهرباء والشبْح والدولاب، وأنا مطمّش ويداي مقيدتان إلى الخلف. في إحدى اللحظات أمر المحقق العسكري أن يرفع الطمّاشة عن عينيّ. كنت وقتها منهكاً للغاية، لا أكاد أعرف من أنا، أشعر بالدوار، متوتراً بشدة. قال المحقق: "انظر إلى يمينك". كان هناك شخص بدأوا بالتحقيق معه قبلي. قال: "شايف هداك؟" فأجبت: "نعم سيدي شايفه" فقال: "هداك ميت"!! صُدمت! كان جسده منتفخاً من شدة التعذيب، وكذلك كنت أنا، لا يمكن أن تستبين معالم وجهي، ويداي ملونتان بالأزرق والأحمر والأخضر.

قال المحقق: "يا بتصفّ جنبه وبتصير متله.. يا بتعترف". كان هذا بعد عشرة أيام وأنا تحت التعذيب. كنت شاباً طرياً لم أمارس أي عمل شاق، بين المدرسة والمنزل فقط، ورغم ذلك كنت أصررت على الصمود وعدم الاعتراف بما لم أفعله. ولكنني الآن قررت أن أعترف فراراً من الموت، لعلّي أُسجن لعدة أشهر وأخرج إلى أهلي الذين لا يعرفون عني شيئاً.

اعترفت بالتهم التي كان يرددها على مسمعي وأنا لا أعي ما أقول. بان عليه الرضا وطلب لي طعاماً وماء. ظننت وقتها أن عذابي انتهى وأنه سيحوّلني إلى سجن عادي لكنه أعادني إلى الزنزانة. بعد ساعتين، وكان الوقت منتصف الليل، أرسل ورائي فقال: "لقد اعترفتَ أنك ضربت حاجز كذا وحاجز كذا وأنك زرعت عبوة"، فأجبت: "نعم سيدي، اعترفت". كنت حينها أشعر بشيء من الارتياح بسبب توقف الضرب لكنه فاجأني بالسؤال: "احكي لنا هلق كيف عملت ما اعترفت به ومع من؟". لم يكن عندي أي جواب فاضطررت إلى اختراع قصة خيالية راعيت فيها ألا أتحمل مسؤولية قانونية كبيرة. زعمت أننا، كيافعين، نوضع في الصف الثاني للمسلحين نملأ الذخيرة ولا نطلق النار، إذ لو قلت إنني أطلقت الرصاص على جنود من الجيش كان سيقتلني في مكاني.

في سجن البالوني

بعد يومين أو ثلاثة حوّلوني من الفرع. في الطريق إلى دمشق مررنا بمركز احتجاز مؤقت شهير هو "البالوني". هنا لا تتعرض لضرب شديد، فقط بعض الكرابيج عند "الاستقبال". كنا نقف في دور لتسليم "الأمانات" التي تكاد تقتصر هنا على الهوية الشخصية بعد أن تكون النقود التي كانت بحوزتك عند الاعتقال قد تبخرت بالسرقة. كان أحد العناصر يسجّل معلوماتنا على ورقة وبجانبه ضابط علوي ضخم بشوارب كثة. سألني: "ما اسمك؟" فأجبت. فسأل: "أنت شو عامل؟ لساتك ولد... شو عامل؟" فبدأت إجابتي بقولي: "أستاذ ماني عامل..." فقاطعني قائلاً: "شو؟ شو

قلت؟ عيد عيد". كررت قولي: "أستاذ..." فنكزني السجين الذي يقف خلفي منبهاً إلى أن أخاطب الضابط بلفظة "سيدي". لم أكن أعرف أن لفظة "أستاذ" في عرف الجيش السوري ذات معنى تحقيري. كنت أظن العكس! كنت أعتقد أنني أبجّله. حاولت الاعتذار مكرراً لفظة "سيدي" مراراً، لكنه أمرني أن أجلس في الزاوية. جاء وأخذ بشتمي بألفاظ لا تخطر على بال بشر ولم أسمعها في حياتي، ثم بدأ بضربي، لم يترك مكاناً في جسمي لم يضربني عليه. أثناء ذلك قدم اثنان من العساكر وسألا الضابط: "أمرك سيدي... شو عامل هادي؟" فأجابهم: "اضربوه... عم يقول لمعلمينه أستاذ!". صارا يضرباني وهما يخاطباني بلهجة علوية غير متقنة، لأنهما ليسا علويين. يستحيل أن أنسى هذا اليوم، فأنا قادم من المدرسة في نهاية المطاف، وقد اعتدت على استخدام كلمة "أستاذ" للاحترام!

في فروع دمشق

سندني اثنان من زملاء الرحلة وأدخلاني وأنا مضعضع إلى مهجع "البالونة" الذي بقينا فيه أكثر من عشرة أيام. ثم حوّلونا إلى فرع فلسطين مروراً بالقابون. في أي فرع تمرّ به هناك ما يدعى "الاستقبال"، وهو حفلة تعذيب ابتدائية تزداد شدتها كلما صعدتَ درجة في سلم أهمية الفرع ومستواه. أصبح موضوع التعرّي والوضعية "جاثياً" أشياء أوتوماتيكية تتكرر عند الدخول لأي فرع. تعرّفنا على "الأخضر الإبراهيمي"، وهو أنبوب تمديدات صحية بلاستيكي لونه أخضر وقطره 3 إنش، سمّي كذلك نسبة إلى مبعوث أممي للقضية السورية.

كان "الاستقبال" في فرع فلسطين هو الأشد. عندما أدخلونا كنا 95 سجيناً في "جنزير" واحد، قتل منا ثلاثة أثناء "الاستقبال"! كان الطعام "معقولاً" نسبياً هنا، أي أن أحدنا كان يحصل على رغيفين أو ثلاثة من الخبز في اليوم، ولذلك كانوا يضربوننا كي لا نشعر أننا موجودون هنا لمجرد الأكل والشرب! فإما أن يدخلوا على المهجع، كل أسبوع أو عشرة أيام، ليضربونا جميعاً فيه، أو أن يخرجونا، فرادى أو اثنين أو كل ثلاثة، فيضربونا في الخارج ويعيدونا، دون سبب ولا تحقيق.

حوّلونا بعدها إلى الفرع 248، التابع لجهاز الأمن العسكري كذلك. هناك "استقبلونا" ثم لم نتعرض للضرب بعدها. ولذلك تفاءلنا بالإفراج عنا قريباً. في أحد الأيام نادوا على بعض الأسماء وكنت بينها. كنا حوالي 100 سجين تقريباً. سلكونا في "جنزير" واحد، وهو أن تبقى إحدى حلقتي الكلبشة في معصمك والحلقة الثانية في الجنزير المعدني. صعدوا بنا إلى سيارة "البراد" المخصصة لنقل السجناء، حيث نكون في صندوق مغلق إلا من فتحات صغيرة جداً وعالية يدخل منها قليل من الضوء والهواء. نظرنا منها لنعرف وجهتنا. قال أحد المقيمين في دمشق والذين يعرفون طرقها: "يا شباب... الله يستر!" ولما سألناه ونحن قلقين أجاب: "نحن ع طريق صيدنايا". لم أكن قد سمعت بشيء من هذا من قبل فسألت: "شو هاد صيدنايا؟". أجابوني: "هلق بتشوف شو هو!". وصاروا يدعون الله أن يكون نصيبنا في "الأبيض"! لم أفهم شيئاً من هذا الحديث أيضاً! ما صيدنايا! وما الأبيض والأحمر! لاحظت معالم الخوف على من حولي فاستغربت ذلك بعد كل الذي مرّ بنا. ولما أبديت لهم ذلك سألني أحدهم: "شقد صار لك مسجون؟ وعلى أي أفرع مرّيت؟" فلما أجبته قال: "بتعتبر الفترة اللي سجنتها والأفرع اللي مريت فيها أنك كنت عند بيت أهلك"! ذهلت من كلامه فكرر: "اعتبر أنك كنت ببيت أهلك أو بسياحة بالنسبة للي رايحين عليه"! أحسست بالخوف وأخذت ألهج بالدعاء.

في صيدنايا: حفل الاستقبال

عندما نزلنا من البراد أمرونا أن نخلع عراة بالكامل ثم أن يمسك كل منا بيديه خصر زميله الذي أمامه وينحني ويضع جبينه على مؤخرة هذا السجين، وبهذه الطريقة كان من المستحيل أن ترى أحداً. كانوا يطمشون أعيننا في الأفرع، أما في سجن صيدنايا فلم يفعلوا ذلك. صرنا مثل قطار مكون من مائة شخص. أول ما واجهنا في صيدنايا درج عال صعدناه ثم أصبحنا في صالة كبيرة جداً في وسطها مكتب ليسلم فيه القادمون الجدد "أماناتهم".

"الاستقبال" في صيدنايا فظيع للغاية، من ينجو منه سيتمكن من الحياة في هذا السجن المريع. هنا تعرفت إلى ما يسمونه "الهروانة"، وهي أنبوب مصمت من السيليكون المضغوط الذي يستعمل للحم البلاستيك في الأصل. الهروانة لا تجرح، فهي غير حادة، ولا تكسر عظماً، لكنها إما أن تميت الشخص مباشرة أو تسبب له ألماً غير عادي، أشد من كل وسائل التعذيب الأخرى.

كان مكاني قريباً من آخر الدور لتسليم "الأمانات". أثناء ذلك كان الضرب لا يتوقف، لنكتشف لاحقاً أنه مجرد ضرب "تمهيدي". أثناء تسليم الأمانات يبدأ الضرب الجدي، وبعد ذلك يتوجه السجين إلى حائط فيسجد على الأرض باتجاه الجدار بينما يظل جسده العاري مكشوفاً. وهنا يتناوله حوالي 20-15 من السجانين بالضرب حتى يأتي سجين آخر من تسليم الأمانات فينتقلون إليه، ثم يعاودون ضرب القديم والأقدم، وهكذا.

كنت أصغر القادمين في "الجنزير"، ووصلت أعمار البعض إلى الخمسين أو الستين عاماً. عندما اقترب دوري لتسليم أماناتي جاء عنصران يحمل كل منهما هروانة وسألاني عن مواليدي فأجبت إنها 1997، فقالا: ما الذي جاء بك إلى هنا وأنت في هذا السن الصغير؟ ماذا فعلت؟ أجبت أنني لم أرتكب شيئاً وأنني هنا خطأً. أثناء ذلك كنت مطأطئ الرأس، يمنع أن أرفعه أو أن أتلفت يميناً أو يساراً ولذلك لم أر من يتحدث معي. في صيدنايا إذا صدف ورأيت وجه السجان سيكون مصيرك الموت. سألاني عن قصتي فسردتها، وتخيلت أنهما قد تعاطفا معي بحكم عمري. قالا "اخرج من الدور وأعطنا ظرفك". وقفت جانباً وأعطيتهما الظرف الذي يحوي الأمانات. أمراني فرفعت يديّ إلى أعلى وباعدت بين فخذيّ وأخذا بشتمي وضربي على أعضائي الجنسية. ضربا قضيبي سبع ضربات بالهروانة يستحيل أن أنساها. مع الضربة الأولى شعرت أنني على وشك الموت، وتمنيت أن يقتلاني لأتخلص من هذا الألم الفظيع.

في الأفرع كانت الاستغاثة والبكاء ومعالم الانهيار والتوبة تجدي بعض الأحيان، أما في صيدنايا فالحال هو العكس، إذ زاد الضرب عندما لاحظا أن جسدي صار يرتجف لا إرادياً.

وسائل الضرب هنا هي الهروانة والأنبوب المعدني و"قشاط الدبابة"، وهو السير الجلدي الذي يلتف على محرّك الدبابة، وهو يسلخ الجلد كلياً، والكبل الرباعي المكون من كبل من النحاس يجدل مرتين، عندما يضربونك به تشعر أنك ستموت، وبعد الضربة الأولى يتخدّر جسمك فلا تعود تشعر بالألم إلا بعد انتهاء حفلة التعذيب ويهدأ جسمك فتحس.

استمر "الاستقبال" حوالي أربع أو خمس ساعات. ومن المائة الذين وصلنا سوياً قتل ما لا يقل عن خمسة عشر شخصاً! كل يومين أو ثلاثة يصل "جنزير" كهذا إلى السجن ويسقط عدد مقارب من الضحايا. قتل الناس في صيدنايا كان أمراً تافهاً.

إلى المنفردات

عندما انتهوا من ضربنا سحبوا الجثث إلى طرف وصاحوا: "واقفاً واقفاً... قطار قطار قطار"، فاستجبنا كما حصل عندما وصلنا في البداية. وجّه العسكري أول واحد في "القطار" فنزلنا درجاً. كانت أعضائي التناسلية قد تورمت بتأثير الضرب وكنت أشعر بألم شديد عند المشي وكان نزول الدرج صعباً، خاصة مع وجود عناصر من السجانين منتشرين على طرفي الدرج وهم يضربون من يمر. نزلنا حوالي 3 أو 4 طوابق تحت الأرض. وصلنا إلى زنازين يقف أمام كل منها عسكري يُدخل إليها عدداً من القادمين.

كانت هذه هي "المنفردات". أدخلونا إلى واحدة مساحتها ثلاثة أمتار في ثلاثة ونصف أو أربعة أمتار، وبداخلها حفرة المرحاض. كنا 28 شخصاً. كانت خصيتاي قد تورمتا ولم أعد أتمكن من المشي أو الجلوس أو الوقوف. كان وقتاً صعباً جداً.

كانت حصة الواحد منا بلاطة فقط، فكنا نتناوب الوقوف والجلوس. كنا عراة متلاصقين متزاحمين. رجوت من حولي أن يقدّروا وضعي فتبرع ثلاثة ووقفوا كي أتمكن من مد فخذيّ والمباعدة بينهما. كانت الظلمة مستمرة في هذا المكان تحت الأرض لولا "نواسة" حمراء صغيرة داخل "المنفردة" التي حوت كل هذا العدد.

ظللنا في البداية ليومين دون طعام ولا ماء. وفي اليوم الثالث أحضروا لنا ماء وأعطونا، كلنا، رغيفاً ونصف من الخبز وخمس عشرة زيتونة! كنا نتضور جوعاً ولم نعرف ما نفعل بهذه الكمية الغريبة! صار الاثنان يتقاسمان الزيتونة. وزعنا الخبز فكانت حصة الواحد لقمة! أكل البعض وآخرون لم يأكلوا. كنت مشغولاً بألمي الذي كان لا يتوقف أثناء النوم أو الجلوس أو الوقوف. منذ اليوم التالي صارت حصتنا ثلاثة أو أربعة أرغفة من الخبز. وفي اليوم الذي يحضرون لنا فيه طاسة صغيرة من الرز، لا تتجاوز السبعة أو الثمانية ملاعق، كانوا يقطعون الخبز.

الشاويش

عيّنوا لكل واحدة من المنفردات "شاويشاً". يتم ذلك بأن يدخل السجان فيختار شخصاً لا على التعيين ويأمره أن يتخذ الوضعية جاثياً على ركبتيه ووجهه إلى الحائط، ثم ينهال عليه بالضرب المفرط حتى يعجز عن الوقوف، فيجبره على ذلك ويخبره أنه صار شاويش الزنزانة، ويبلغه التعليمات التي يجب عليه اتباعها تحت طائلة قتله إن تمت مخالفتها. باختصار، الشاويش شخص ميت.

أحد الموجودين في المنفردة بجوارنا كان دائم الصياح بسبب فقده السيطرة على عقله، وكنا نطلق عليه "الفاصل". في أحد الأيام جاء السجان نتيجة الصوت فسأل شاويش زنزانته الذي أجاب إن "الفاصل" هو من صرخ. يطلق السجانون في صيدنايا على الشاويش لقب "العرصة". قال السجان: "يا عرصة... بعد 5 دقايق إذا بسمع صوته؛ يا أنت بتموت يا تنيناتكن بتموتوا". فهم الشاويش أنه ميت لا محالة إن لم يتخلص من هذا السجين المضطرب، وهو ما حصل... أمسك برقبة "الفاصل" فلواها وأجهز عليه. عندما عاد السجان في المساء سأل الشاويش عما حدث فأجاب: "مشي حاله"! لم يستطع عقلي تخيل حصول هذا الأمر بين سجناء، فقد قتل الشاويش شخصاً كي يحافظ على حياته. أما السجان فأعجب بالشاويش ورفع صوته مخاطباً الجميع: "اسمعوا يا عرصات... أنتو كنتوا رح تضلوا من 25 يوم إلى 30 يوم في هالمنفردات، بس بكرة الصبح رح نطالعكن منهن، مكافأة مني لشاويش الزنزانة".

في المهجع

هكذا ظللنا في "المنفردة" 13 يوماً فقط ثم صعدوا بنا إلى مهاجع كبيرة طول الواحد منها أحد عشر متراً وعرضه ستة أمتار وفيه حمام. كان المهجع نظيفاً وكأنه لم يستعمل من قبل، ووجدنا فيه بعض المنظفات التي كانت ضرورية جداً لنا بعد كل هذا. صرت أمشي وأمارس الرياضة فبدأ ورم أعضاء التناسلية بالتراجع تدريجياً.

خلال الأربعة أو الخمسة أيام الأولى في المهجع لم يحضروا لنا أي طعام! عشنا على الماء. لم يدخل علينا أحد! في اليوم الخامس أحضروا الفطور الذي كان مكوناً من الخبز وجاط زيتون كان نصيب الواحد منه زيتونتان ونصف.

كنا هنا 35 شخصاً، وهو، كما علمت لاحقاً، الحد الأعلى للعدد في المهاجع. نقلوا الثمانية وعشرين شخصاً الذين كنا سوياً في "المنفردة"، وأضافوا إلينا سبعة من الزنزانة التي كانت مجاورة لها، بينهم الشاويش الذي قتل سجيناً لينجو! كان شاباً بشعر طويل. نسيت اسمه ولكني عرفت عندها أن أصله من "الفوعة" بإدلب، وكان "شبيحاً" في دمشق يفعل ما يشاء حتى اختلف مع من هو أقوى منه في التشبيح فكان مصيره السجن معنا.

عندما دخل سجان المهجع ليعين شاويشاً له اصطففنا، كما هي التعليمات، جاثين على ركبنا ووجوهنا إلى الجدار المقابل للباب. وقفنا صفين فاختار السجان هذا الشاب نفسه. أخرجوه من بيننا وتناوله ثلاثة بالضرب حتى صار يتكلم بصعوبة فقال له المسؤول: "ولاك... أنت عرصة المهجع" وبدأ يلقنه التعليمات التي كانت أن أي صوت يصدر أو مخالفة تحدث سيعاقب عليها.

بعد أن صار هذا الشاب شاويشاً أخذ بالتنمر علينا وصار يريد أن يضربنا هو الآخر! وفي أحد الأيام استنكر أحد السجانين عليه طول شعره وأمره بحلاقته خلال يومين تحت طائلة الموت. لم يكن هذا مفهوماً لأي منا، فكيف يمكن أن يقص الشاويش شعره وليست في المهجع أي وسيلة لذلك من مقص أو سكين أو أي أداة حادة! لكن الكلام كان جاداً فبدأ الشاويش بنتف شعره وهو يتألم ولا يجرؤ على الصياح، والسجان يذكّره بالموعد في الغد كلما مرّ!

حل الصباح التالي وجزء قليل من الشعر فقط قد زال. كانت مشاعرنا مختلطة؛ فهو شبيح وقد قتل السجين "الفاصل" وحاول إذلالنا والتحكم بنا، لكنه في النهاية روح تعيش بيننا. كنا نتمنى أن يُعاقب بشيء ما لا أن يموت! اقترح عليه أحدنا أن يكسر إحدى قطع السيراميك الموجودة في الحمام ليستخدمها كأداة حادة فاقتنع. أخذ يلكم السيراميك حتى دميت يده ولم يستفد شيئاً. أخذنا نحاول الواحد تلو الآخر، بمن فيهم أنا الذي كنت أكرهه. دميت أيادي بعضنا أيضاً حتى كُسرت إحدى القطع. بدأوا بحلاقة شعره بها فصار يتألم بشدة. ولأنه لا يستطيع الصراخ أخذ يبكي. لكنه نجا بذلك من الموت وتغير تعامله معنا.

الدولاب

كان هذا هو اليوم السابع لنا في المهجع. في الغد سيضربوننا لأول مرة هنا. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً عندما بدأوا بضرب السجن كله، من أول مهجع في الطابق الأول وحتى آخر مهجع في الطابق الثالث. كانت هذه الطريقة تسمى "الدولاب" بسبب أنها تشمل السجن كله، وذلك بخلاف العقوبة التي قد تطال جناحاً محدداً أو مهجعاً بعينه. عندما بدأ الضرب كانت الأصوات مرعبة. كنا ندعو الله أن ينتهوا ممن قبلنا بسرعة ويأتي دورنا كي ننتهي من الذعر. كنا في المهجع السابع من الجناح الثالث من الطابق الثاني. عندما كانوا يصلون إلى طابقنا كان علينا أن ننتظر حتى ينهوا الجناحين الأول والثاني وستة مهاجع! كنا نموت ألف ميتة من سماع الصوت فقط! لكنهم

دخلوا أخيراً! لا أستطيع وصف الضرب لكن ربما يكفي أن أقول إنه خلّف قتيلين من بيننا! في مرات قادمة ربما يُقتل خمسة أو سبعة من مهجعنا خلال حفلة من عشر دقائق!
في الصباح التالي نقوم بإبلاغ السجانين بوجود الجثث ليجري إخراجها. في جناحنا أبلغت جميع المهاجع عن جثث من الليلة الماضية؛ من المهجع الأول خمسة ومن الثاني ثلاث وهكذا... أخذنا نتعرّف على نظام السجن بالتدريج، ومنه أننا سنتعرض لموجة من الضرب مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، ولن تمرّ إحداها دون جثة واحدة في حال كان الضرب "معقولاً". وكلما نقص عدد نزلاء المهجع كانوا يرممونه بسجناء جدد لا ينتهي تواردهم.

الطعام

في البداية كنا نأكل فرادى حتى اكتشفنا ما يسمّى نظام السفرة، وهي أن يقسّم نزلاء المهجع على مجموعات يرأس كلاً منها من يُطلق عليه لقب "رئيس السفرة"، وهو من يتلقى حصة هذه المجموعة من الطعام من شاويش المهجع ويقسمها على أفراد سفرته أو مجموعته. كنا 35 كما أسلفت، فتوزعنا على سبع سفر تتألف كل منها من خمسة سجناء. وهكذا كان على شاويش المهجع أن يقسم ما يأتي من طعام على سبع حصص للمجموعات.
بعد مدة من وجودنا في صيدنايا نسينا العالم الخارجي، نسينا أهالينا، نسينا لماذا نحن هنا، بل وتأقلمنا مع الضرب. صار الأمر الوحيد الذي يشغل بالنا هو متى سيأتي الطعام، بعد أن تراكم علينا الجوع وفقدنا أوزاننا التي كنا قد حافظنا عليها حتى في الأفرع الأمنية.
في أحد الأيام اكتشفنا أن الشاويش، وآخر كان قد عيّنه مساعداً له، يقتطعان لنفسيهما حصصاً من الطعام أكبر مما يصل عادة إلى الواحد منا. اختلفنا معهما وارتفعت الأصوات فقدم السجانون. دخلوا إلى الجناح وسألوا عن مصدر الضجة وعرفوا أنه من مهجعنا. دخلت علينا مجموعة من 15-10 عسكرياً وبدأت بضربنا. كنا لا نزال عراة. أثناء الضرب كانوا يشتموننا بسبب خلافنا على الطعام وكأننا نشير بذلك إلى تقصيرهم فيه! كانت حصة أحدنا على الفطور ربع رغيف وعدة زيتونات. أما على الغداء، المكوّن من البرغل أو الرز، فكان الشاويش يغرف بيده حفنة من الجاط ويسكبها في يديّ كل منا المفتوحتين ونحن قادمون بالدور. لم تكن هناك أي أدوات للطعام وكان على الواحد منا أن يتدبر أمر تقريب يديه من فمه ليأكل الكمية المخصصة له فيهما.
بعد الضرب في ذلك اليوم أدخلونا إلى الحمام. كنت قد قلت إن في زاوية المهجع حماماً ومرحاضاً. لا أدري كيف أصف حشر 35 شخصاً في مساحة بطول مترين وعرض مترين. نبهونا إلى أن من يخرج من الحمام سيموت. كان الأمر مستحيلاً في الحقيقة، إذ كان بعضنا يضطر إلى الاندفاع خارج الحمام بسبب الزحام غير المعقول. وعندما يأخذون بضربه كان يندس بكل قوته في كتلة الأجساد المتراصة، مما يؤدي حكماً إلى إخراج سواه بسبب التدافع فيقع عليه الضرب، وهكذا حتى خرج السجانون.
مرت حوالي النصف ساعة ونحن لا نجرؤ على التحرك حتى بدأ بعضنا يشجّع الآخر على الخروج من الحمام لأن الأمر انتهى كما ظننا. لم نكن نعلم أنهم يستمعون إلينا من وراء باب المهجع. دخلوا من جديد وكانوا يحملون عصاً كهربائية. كانت في أرض الحمام كمية من المياه بارتفاع حوالي 5-4 سم، وكانت أجسادنا متلاصقة ومتداخلة طبعاً، ولذلك عندما لسعوا أول سجين من جهتهم بالعصا سرت الكهرباء فينا جميعاً... أما هو... فمات!
ظلت الحال هكذا خمسة أيام! نحن محشورون في الحمام وممنوعون من الخروج منه إلى "رحابة" المهجع. عندما

كان الواحد منا يريد قضاء حاجته كان ينتقل إلى المرحاض ويعود إلى الحمام. لم يحضروا لنا أي طعام، وعندما كان واحدنا يعطش كان يتحرك إلى الحنفية الواقعة بين الحمام والمرحاض فيشرب منها ويعود.
كان الشاويش ومساعده قد صنعا ما أسمياه "اليطق". يبدو أن الشاويش كان قد تولى المهمة نفسها في الأفرع الأمنية سابقاً وكان فيها "سلطان زمانه" وظن أن الحال هنا يشبه ذاك. اليطق هو مجلس مرتفع قليلاً مكوّن من جمع عدة بطانيات عسكرية وحزمها بحبال قماشية تؤخذ من تمزيق بطانيات أخرى كذلك.
عندما دخل السجانون لمعاقبتنا لاحظوا هذين اليطقين وبقايا البطانيات الممزقة. كان هذا أمراً عادياً في الأفرع أما في صيدنايا فالبطانية أهم من أي سجين. بمجرد أن تمزق بطانية فأنت ميت. سأل السجانون عن هذا ومن فعله. امتنعنا عن الإجابة فأقسم أحدهم إننا سنموت جميعاً إن لم نعترف. قال أحدنا أخيراً إن هذه "يطقات" من فعل الشاويش ومساعده. بدأت شتائم السجان تطال الاثنين وأمرهما بالخروج من الحمام. تلقيا ضرباً لم أكن قد رأيت مثله في حياتي. صار السجانون يتناوبون عليهما، كلٌّ بما يحمل من أداة. في العادة يكفي للتعذيب بالعصا الكهربائية لسعة واحدة، لكن أحدهم ثبتها على جسم الشاويش لمدة 45 ثانية إلى دقيقة، ظل بعدها شبه مشلول لأيام.
أخيراً تشجّع أحدنا وقال إنه سيطلب من المساعد العفو عنّا. استجاب المساعد لتوبتنا وسمح لنا بالخروج من الحمام. نبّهنا إلى الحذر من إصدار أي صوت في المستقبل، وقال إنهم سيعاودون جلب الطعام لنا ابتداء من الغد. كان ذلك مصحوباً بالشتائم لكننا اعتبرنا هذا المساعد "جيداً" لأنه لم يقتل من تجرأ وخاطبه طالباً العفو!

في مهجع الجوع
بعد حوالي خمسة عشر يوماً في المهجع سمعنا بما يقال له "فرط المهاجع". لم نفهم المعنى في البداية حتى صاروا يُخرجون كل أربعة منا وينقلونهم إلى مهجع آخر يختلف عن الباقين. وهكذا نُقلت، مع ثلاثة، إلى مهجع كان يحوي ثلاثين سجيناً من قبل. وهنا تبدأ قصتي!
في المهجع الجديد رأينا موتى يسيرون على أقدامهم. خفت عندما رأيتهم. كانوا شديدي النحافة وخدودهم غائرة وقفصهم الصدري بارزاً، لا يتجاوز وزن أسمنهم 40-35 كغ. كنت أزن سبعين كيلوغراماً وقتها، وهو وزني الطبيعي الذي لم ينقص في الأفرع، فقد كان الغذاء مقبولاً وكنت أواظب على الرياضة حتى لو كانت حصتي من المساحة بلاطة واحدة.
أخذنا بالحديث معهم وأنا لا أزال خائفاً منهم ومن أني قد أصبح مثلهم. أما هم فقد استغربوا الامتلاء الواضح لجسدي، فقد كنا لا نزال عراة تماماً. كانت في المهجع ست سفر تتألف الواحدة منها من خمسة أشخاص، وصرنا، نحن القادمين الجدد، سفرة سابعة. كان الثلاثة الذين معي "أولاد دعوى" واحدة كما يقال بلغة السجون السورية، أي أنهم متهمون في قضية جماعية واحدة مشتركة. كانوا من جسر الشغور بريف إدلب، وكان أكبرهم يدعى نادر نديم كحيل، وهو من سأصبح قريباً منه بسبب أخلاقه الطيبة. واكتشفت أن أحد قدامى المهجع يتحدر من منطقتي نفسها. كان اسمه محمد هاشم الأقرع، وكان يحظى باحترام الباقين ومحبتهم بسبب أخلاقه وقدمه، إذ كان مسجوناً منذ 2011.
جاء أبو هاشم الأقرع وتعرّف عليّ وعلى قصتي، ثم أعطاني بنطالاً وقميصاً لأرتديهما. عرفنا هنا أن هناك نظاماً للزيارات في صيدنايا، فقد كان بعض الذين انتقلنا لعندهم يرتدي بيجاما أو كنزة أو قميصاً... إلخ. شعرت بسعادة بالغة بمجرد ارتداء الملابس التي جلبها لي أبو هاشم من شاب من منطقتنا أيضاً اسمه حسام موّاس كان قد تلقى

زيارة. كان انكشاف عورتي أمراً يثير حساسيتي، وكنت أغطيها أثناء الصلاة التي لم أنقطع عنها حتى في أحلك الأوقات، أما الآن فصار بإمكاني أن أصلي بشكل طبيعي!
توضأت وصليت وجسدي مستور... سررت بشكل كبير جداً.
أعلن أبو هاشم في المهجع أنني ابن منطقته وأنني محسوب عليه، وأن من يمسّني بسوء سيكون وكأنه نال منه. لم أفهم شيئاً، إذ ما الذي قد يحدث! ستمر مدة قبل أن أعرف أن الأمر كله يدور حول الطعام. كان السجناء قد تحولوا إلى ما يشبه الذئاب التي يحاول أحدها الاستيلاء على حصة سواه كي يبقى على قيد الحياة. لكن تحذير أبو هاشم كان كافياً، وفي المستقبل ربما سيظل طعامي ملقى على الأرض أمام الجميع دون أن يقربه أحد. لم يكن أبو هاشم شاويشاً للمهجع ولكنه كان متطوعاً لتنظيفه، وكان يقوم بذلك بشكل ممتاز.
بعد قليل جاء الطعام المكون من البيض والزيتون. كانت حصة "سفرتنا"، المكونة من أربعة أشخاص، بيضة ونصف بيضة، ونصف رغيف من الخبز للواحد.
قال لي أبو هاشم ألا أبادل الطعام بنفسي بل أن أخبره عن ذلك إن رغبت. لم أفهم أيضاً، حتى عرفت بالتدريج أن في السجن "تجارة" تقوم على عملةٍ هي الخبز. فمثلاً قد يشتري أحد السجناء من آخر -وصلته زيارة- كنزة ليستر بها جسده أو يتقي البرد، مقابل ثلاثة أو أربعة أرغفة تُسدّد بمعدل ربع رغيف يومياً! وقد يبيع من لا يحب البيض حصته مقابل نصف رغيف... وهكذا.
بعد أن تناولنا فطورنا الأول هنا، وكنا قد وضعنا قشر البيض وعجو الزيتون جانباً، أتانا ثلاثة من السجناء وسألونا "أتحتاجونها؟". استغربنا وسألناهم عن ماذا يدور هذا الحديث؟ فأجابوا إنه قشر البيض. ظننت أنهم ينبهوننا إلى النظافة فقلت إنني سأرميه بعد قليل ولكني لا أعرف أين، فأنا جديد في المهجع. كرروا السؤال عن حاجتنا إليه فأجبت بتلقائية: لا. كان المشهد مرعباً عندما تناوشت أياديهم المتنافسة قشر البيض. شعرت أن دقات قلبي وصلت إلى 1000 لشدة فزعي. قفزت إلى الوراء وصرخت بهم: "ما الذي تفعلونه؟!". أجابوا: "أنت جديد وستعرف في المستقبل". "ما الذي سأعرفه؟!". قالوا إنهم يأكلون قشر البيض وعجو الزيتون وأي شيء!
أتى أبو هاشم وقال لي أيضاً إنني جديد، وعليّ أن أهدأ وسأفهم كل شيء لاحقاً. صرخت: "ما الذي سأفهمه؟ ماذا يحصل أمامي؟!".
بعد شهر أو شهر ونصف سيشح الطعام بشدة. قد تمضي أربعة أو خمسة أيام دون أن يحضروا شيئاً، ثم تصل وجبة تكون حصة الواحد منها ربع رغيف أو نصفه. اعتدت تناول قشر البيض وعجو الزيتون، مثل الآخرين.
مرت أربعة أشهر في هذا المهجع لم تحدث فيها إلا هذه الدورة؛ ننام، نستيقظ، ننتظر الطعام القليل جداً، نتناوله كاملاً بشرهٍ ونختلف عليه. لن أسترسل في الحديث عن الضرب فقد كان متكرراً حتى صار بالنسبة إلينا أمراً طبيعياً. حتى الموت صار شيئاً معتاداً، يموت البعض نتيجة الضرب أو المرض أو الجوع... وهكذا.

وفاة أبو هاشم

في أحد الأيام مرض محمد هاشم الأقرع، الشاب الذي كان قد علمني الكثير ورعاني في كل شيء. كان قد علّمني الاقتصاد في الخبز وتوفيره للأيام الصعبة. وكان يحفظ لي مخزوني عنده لئلا يسرقه أحد، إذ كان بعض الجائعين لا يحتملون رؤية خبز لدى أحد زملائهم، وكان اعتمادنا الرئيسي في الطعام على الخبز. ولأنني كنت أمارس الرياضة كنت أشتري البيض منه ويتساهل معي في التسديد. في إحدى المرات أخذت من عنده بيضة، بيضة كاملة، على أمل دفع ثمنها قريباً ولكن الأيام اللاحقة توالت وحصتي اليومية ربع رغيف فقط، وكان يرفض أخذه. ظل الوضع هكذا لأسبوع حتى تمكنت من تسديد ثمن البيضة، الذي كان نصف رغيف أو ثلاثة أرباعه.

قبل مرضه كان لدينا مرضى. كانوا يصابون بالضعف الشديد حتى يعجزوا عن القيام والحركة والطعام، بالتزامن مع الإسهال. وكنت قبلاً أساعد أبو هاشم في تنظيف المهجع وإزالة فضلات من يضطرون لقضاء الحاجة في أمكنتهم لعجزهم عن التحكم بأنفسهم. وكذلك كان يساعده حميد مروان يسوف من الغاب، الذي سيموت لاحقاً وأتولى إبلاغ هذا الخبر لأهله بعد خروجي.

عندما مرض أبو هاشم وعجز عن الحركة توليت وحميد تنظيف المهجع. لاحقاً سأعرف أن ما أصاب أبو هاشم هو السل. أما الآن فصرت أعتني به وأدلك جسمه لتخفيف الألم عنه.

زاد مرض أبو هاشم. وقبل أن يتوفى بيوم ارتفعت درجة حرارته بشدة وصرت أعالجه بكمادة هي القميص في حقيقة الأمر. وفي اليوم التالي قضى بين يديّ وأوصاني أن أبلغ أهله بذلك إن قيّض لي الخروج. وهو ما فعلته.

عند حدوث وفاة في المهجع عليك أن تبلغ السجان حين يأتي بالطعام. لاحقاً سيرسلون لك عسكريَّين معهما نقالة عسكرية يضعانها خارج المهجع ويأمران بإخراج المتوفى. كان على أهل المهجع مصالبة قدمي الجثة وربط يديها على صدرها. حين يصيح السجان لإخراج الميت يتولى ذلك اثنان من السجناء، كان عليهما أن يفعلا ذلك خلال خمس ثوانٍ يرافقها التعداد الصادر من السجان، فإن لم يكفِ الوقت سيتعرض السجينان لضرب وحشي.

كانت أمور السرعة والتعداد شديدة الأهمية للسجانين، ودائماً تحت طائلة الضرب المبرّح. عندما يُحضرون الطعام كان السجان يعدّ حتى ثلاثة، وخلال ذلك على الشاويش أن يُخرج الجاطات الفارغة من الوجبة السابقة ويُدخل الجديدة. بعد أن ينهي السجان العدّ سيغلق الباب الموارب على كل حال، سواء أغلق بشكل طبيعي أم أثناء حركة الشاويش الذي قد يُكسر أحد أعضائه بهذه الحركة وقد يموت فوراً. ولذلك كان أكثر القتلى من "الشاويشية". ألم أقل إن الشاويش شخص ميت!

ومات حسين

في هذا المهجع كان شاويشنا حلبياً، وكان معنا أحد أقربائه، وهو شاب اسمه حسين كان طالباً في كلية التربية بجامعة حلب. صار صديقي وكنا نتبادل قراءة القرآن. كنت قد حفظت كثيراً من السور من السجناء في الأفرع. وخلال الأشهر السبعة التي قضيتها في هذا المهجع صرت أبحث عمّن يحفظ بعض سور القرآن ليحفّظني إياها، وعلى من لا يعرف ما أحفظه منه لأتلوه عليه. وكان هذا أمراً يبعث على الراحة.

كان حسين يرغب أن أحفّظه سورة يس. بدأنا بذلك وكاد أن ينهي حفظها عندما مرض وظهرت عليه الأعراض نفسها. عجز عن الأكل فصار يهبني حصته من الطعام لكنني كنت أرفضها فيعطيها لقريبه الشاويش الذي كان يأكلها أو يعطيها للأشد حاجة ومرضاً وضعفاً في المهجع.

في منتصف إحدى الليالي سمعت من ينادي باسمي فصحوت من النوم. كان حسين يتدثر بالبطانية في زاوية المهجع ويشير لي بيده. ذهبت لأرى ما يريد فقال: "لا أريد شيئاً.. فقط اجلس بجواري واقرأ لي سورة يس". لن أنسى هذه الليلة مهما عشت. قال: "اجلس بجواري. ضع يدك على جبيني واقرأ سورة يس". فعلت ذلك ولما انتهيت سألته إن كان يحتاج شيئاً آخر فلم يرد. ظننت أنه غفا فعدت إلى نومي أنا الآخر. في الصباح اكتشفنا أنه مات بينما كنت أقرأ له السورة. بكيته بحرقة ولا أزال.

غسلناه وأخبرنا السجان عندما أتى بالطعام: "سيدي في عندنا ميت"، فأجاب بلهجة علوية: "في عندكِن فاطِس؟ خلوه فاطِس. بعدين تانشيلو". ظلت جثة حسين في المهجع يومين قبل أن يأمروا بإخراجها. خلال هذا الوقت كنت أنظر إليه ولم أستطع أن آكل أو أن أتكلم مع أحد.

وقُتل محمد

كما سبق أن أوضحت؛ حين يدخل السجانون كان علينا أن نتوجه بسرعة إلى الجدار المواجه للباب. نأخذ الوضعية جاثياً ووجوهنا إلى الحائط وظهورنا للسجانين. بحكم العدد كنا نتوزع على ثلاثة صفوف، وكان العرف أن يكون الجدد في الصف الثالث الذي يتعرض للضرب أكثر بحكم استقباله للداخلين. كان مكان أبو هاشم في الصف الأول المواجه مباشرة للجدار بسبب أقدميته وكان مكاني في الثالث. لصغر سنّي ورعايته لي أراد أن نتبادل الأماكن كي لا يقع عليّ الضرب المباشر، مما يرفع من احتمال الموت، فلم أقبل. تدخل أحد السجناء من الصف الثاني فبادلني بمكانه وقال إنه سيقف خلفي ليتلقى الضربات. كنت قد عرفته للتو إثر دخولي المهجع. كان أسمر طويلاً، من ريف حماة الشرقي، متزوجاً ولديه ابنتان. أظن أن اسمه محمد. سأخبرك الآن لماذا لا أحفظ اسمه جيداً ولا أعرف عنه الكثير، إذ لم يتسنّ لي أن أخالطه.

بعد أن اتفقنا على تبادل الأماكن، وأتى السجانون لنوبة ضرب في اليوم التالي؛ أخذت موقعي في الصف الثاني وكان محمد ورائي. عندما يضربوننا تتساقط الأجساد فوق بعضها فاستغللت صغر حجمي وانبطحت لتغطيني أجسام الآخرين. عندما خرجوا كنت مبللاً بدم غزير بينما جسد محمد الضخم يقبع فوقي. خاطبته قائلاً: "محمد خلص راحوا... بعّد عني خليني أتحرك... رح تفطسني"، فلم يرد.

مات محمد بدلاً عني... ومات حسام موّاس الذي أخذت منه الملابس التي سترت بها عورتي. مات حسين... ومات محمد هاشم الأقرع... وبقيت وحيداً.

ومات محمد الآخر

تزايدت الوفيات يوماً وراء آخر، ولأسباب متعددة.

قلت إنني دخلت هذا المهجع مع ثلاثة من جسر الشغور "أولاد دعوة" واحدة. كانوا أقارب في الحقيقة، وقد اعتقل أولهم فاعترف، تحت التعذيب، باسمي الاثنين الباقيين وهما نادر نديم كحيّل وشاب اسمه محمد أيضاً، من مواليد 1995. كان وحيد أهله، يدرس الهندسة في جامعة خاصة. أصبحنا أصدقاء نسبياً بسبب تقارب العمر.

في أحد الأيام نودي على محمد للزيارة. لكنه عاد منها مصفرّ الوجه، جاحظ العينين. صار دائم الشرود والبكاء. عجز

عن الأكل والشرب وكنا نجبره على الطعام فتظل اللقمة في فمه نصف ساعة دون أن يتمكن من بلعها. لم نعرف ما حصل! لم يتكلم إلا بعد مدة؛ ففهمنا أن من زاره كان أمه وخالته، وأنه لاحظ معالم الحزن الشديد على والدته، وكان متعلقاً بها جداً، فانتقلت إليه عدوى الاكتئاب الذي أنهكه بالتدريج أمام أعيننا حتى مات.

المهجع دون شاويش

لشدة الضرب الذي تعرض له الشاويش عجز عن أداء مهامه. تبرّع شاب من دمشق للحلول محله لكنه كان بطيئاً قليلاً في سحب الطعام فأغلق السجان عليه الباب، عند الانتهاء من التعداد، فكسر ظهره.

لم يعد أحد يجرؤ على التعيين كشاويش. اقترح أحدهم أن يصبح شاويشاً شرط أن يأخذ حصة زائدة من الطعام مقابل المخاطرة فلم نقبل. كان الأكل محور حياتنا ولا يمكننا المساومة عليه. قررنا أن نعيش دون شاويش وأن يتولى كل منا هذه المهمة يوماً بالدور، وأن نقسم الطعام بالتساوي. أثناء ذلك كان نقص الخبرة يلعب دوره في أن يُغلَق على الباب على الكثيرين أثناء إدخال الطعام، فصار نصف المهجع من المعطوبين. كان دوري متأخراً، وكنت أدعو الله ألا يأتي.

كنت قد انتقلت من الصلاة السرية، بتحريك عيوني فقط، إلى الصلاة جالساً مع السجود، وأخذت أشجّع سواي على ذلك. الصلاة في السجن ممنوعة نهائياً وعقوبتها الضرب المؤدي إلى الموت، لكنني فكرت أن ضربنا حاصل ومستمر مهما فعلنا أو لم نفعل.

كان معنا شاب اسمه أحمد. روى لنا قصة حزينة جداً عن حياته منذ غادر بيت أبيه وهو في التاسعة وسافر إلى دمشق حيث عاش حياة أطفال الشوارع بكل تفاصيلها ومعاناتها ثم انتقل للعيش مع أخواله في لبنان حيث عمل وتحسنت أحواله المادية. وعندما بدأت الأحداث في سورية قرر أن يعود للخدمة في الجيش كي "يدافع عن بلده" كما هي أفكاره المؤيدة للنظام. وأثناء عودته اعتقلوه على الحدود بتهمة التخلف عن أداء الخدمة الإلزامية وقادته الأمور إلى صيدنايا. بسبب التشرد الذي عاشه منذ طفولته كان "قلبه ميتاً". كان يتحمّل الضرب ولا يأبه لشيء. كان سيئ الأخلاق ومن الذين يسرقون الطعام، لكنه طيب نسبياً.

في أحد الأيام جاء دور أحمد لسخرة الطعام، وبعد أن أنهى هذه المهمة نادى السجان الذي كان قد مشى مسافة عدة مهاجع فتوعّد أحمد بالضرب إن كان سبب النداء غير مهم.

عندما رجع أخبره أحمد أن مهجعنا دون شاويش. صار السجان يكفر ويشتم بألفاظ مقذعة، ونادى زملاءه وهو يقول لأحمد: "شو؟ ما عندك شاويش وَلا؟ بدك تصير شاويش؟! هلق بفرجيك كيف بتصير شاويش!!". كان الطعام الذي أحضروه منذ قليل هو البرغل والشوربة. أجلس السجانون أحمد في وسط المهجع وصبوا فوقه الشوربة الحارة جداً ثم صاروا يضربونه. كانوا خمسة. أثناء ذلك صار يستغيث طالباً إيقاف الضرب ليقول أمراً ضرورياً. استجاب السجانون فأبلغهم أحمد أن في المهجع "ناس عم تصلي"!!

عندما سمعت هذه الجملة عددت نفسي بين الأموات. لكن أحمد تدارك نفسه فلم يذكر أسماء محددة بل زعم أن المهجع كله يصلي، كي لا تقع التهمة على أحد بعينه وكي ينقضي الأمر بحفلة ضرب جماعية اعتدنا عليها. عندما لم يستطع السجان الحصول على أسماء من أحمد ضربه بالهروانة على فمه فكسر حنكه وسقط مغمياً عليه. سكب السجان البرغل على جسد أحمد المتهاوي وخرج وهو يعطي الإيعاز: "باشر طعام"!!

كان الطعام فوق أحمد وحوله، مختلطاً بدمائه، ورغم ذلك أكل منه الكثيرون واندفعوا ليشربوا المرقة كالعادة، فقد كان أول وجبة تصل إلينا بعد انقطاع يومين.
توقعنا أن يموت أحمد لكن بنيته كانت قوية. خلال عشرة أيام كان بعضنا يتبرّع له بحصته من الشوربة فيحتسيها بصعوبة. عندما التحم حنك أحمد حصل ذلك بشكل مائل وعشوائي، مما صعّب عليه الكلام والأكل حتى بعدما شفي.

الطعام مرة أخرى

هناك طريقتان لإدخال الطعام؛ الأولى أن يضربونا ثم يعطوننا الوجبة، والثانية أن يرموها علينا عندما لا توجد لديهم الحماسة لضربنا. فمثلاً عندما يجلبون ما يسمّونه "الشاي" على الفطور كانوا يحملون القدر الذي يحويه ويدلقونه على رؤوسنا ونحن في الوضعية جاثياً. كان ساخناً جداً وكانت بقايا أوراقه تلتصق برأس من هو أمامي أو بكتف الذي بجانبي، وكنا نأكلها. كما كنا نصنع من أيادينا ما يشبه المغرفة التي نجمع فيها ما نستطيع من الشاي المسكوب ونشربه. كانت الأرض قذرة وكنا نجلس عليها بأجساد شبه عارية، لكننا كنا في أمس الحاجة إلى السكريات وإلى أن نشعر بطعم سائل سوى الماء. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الشوربة التي قد تصل في الغداء. حاولت الامتناع عن ذلك بداية لكنني رضخت وفعلت كالآخرين. أحياناً بسبب السرعة كنا نضع أفواهنا على السائل المصبوب على الأرض ونشفطه مع ما اختلط به من شعر وقاذورات.
يجب أن أضيف أنهم كانوا يحددون طريقة التعامل مع السائل حسب سخونته، فإن كان بارداً سكبوه على الأرض وإن كان حاراً صبوه على رؤوسنا.
صار عدد الذين يموتون من الجوع أكبر من عدد من يقضون تحت الضرب.
مرة تركونا دون طعام لثلاثة أيام. في اليوم الثالث جلبوا لنا وجبةً لم يسبق أن أحضروا مثلها! ملأت رائحة السمنة الزكية المبنى كله، إذ كانت تفوح من البرغل ومن شوربة العدس المرافقة. صرنا ننتظر دورنا ونحن نتضور شهيةً. بعدما أُدخل الطعام تراكضنا عليه، حتى ربما قبل أن يقفل المساعد باب الجناح كله كما تقتضي التعليمات. صدرت عنا أصوات بسبب ذلك فعاد المساعد ونادى سرية السجانين وأخذوا يضربوننا. ثم حمل سطل الشوربة الساخنة التي كنا نتمنى أن تدخل أجسادنا أخيراً، فسكبه على الأرض. أما البرغل فكبّه في المرحاض. تسارع البعض على مد أياديهم إلى حفرة المرحاض وصاروا يغرفون.
صرت أبكي... أردت أن أصيح... احترت ماذا أفعل!! يستحيل أن أنسى هذا المشهد في حياتي...
كانت كمية الطعام قليلة جداً. قد يمر يوم واثنان وثلاثة دون أن يحضروا لنا شيئاً، وبعد ذلك تكون حصة الواحد في الوجبة التالية نصف رغيف أو ثلاثة أرباعه. في مرات نادرة كنا نحصل على رغيف كامل. خلال سنتين لا أذكر أن هذا حصل إلا مرة أو اثنتين.
أعتقد أن التجويع أصعب طريقة تعذيب في العالم. يعتاد المرء على الضرب. قد يستغرب من يسمع هذا الكلام ولكنه حقيقة، ورغم أن الضرب في صيدنايا كان يفضي إلى الموت في كثير من الأحيان. في البداية كنا نخاف طبعاً، لكن بعد مدة صار الأمر عادياً. حتى عندما يُقتل رفيقك صرت تكتفي بالقول: "مات... الله يرحمه". أما ما لم نستطع اعتياده فهو الجوع. وصلنا إلى درجة أن يطلب الواحد من الآخر أن يجلس على بطنه كي يتحمل الجوع قليلاً.

كان الإفطار هو الزيتون أو البطاطا مع شاي. نادراً ما كانوا يرمون الزيتون والبطاطا على الأرض، أما الشاي فمكانه الطبيعي فوق رؤوسنا إن كان ساخناً والأرض إن كان فاتراً أو بارداً. أما الغداء فمكون من الرز أو البرغل مع الشوربة أو المرقة. يسري على الشوربة ما يسري على الشاي برميها على الأرض أو علينا حسب درجة حرارتها. لشهور لم نشرب شيئاً ساخناً، حتى صار ذلك حلماً. صرنا نعتقد أن شرب أي سائل ساخن كفيل بوقف الإسهال الذي كان يصيب الكثيرين منا ووسيلة لتنقية الجسم من الجراثيم.

كانت حصة الواحد من الشوربة التي يشربها من الأرض لا تتجاوز الأربعة أو خمسة ملاعق. وعدداً أكثر بقليل من ملاعق الرز. لا وجود للملاعق ولا لأدوات الطعام بالتأكيد، لكنني أصف الكمية فقط.

داخل المهجع توجد مياه عادية في معظم الأوقات، وكن نقاوم الجوع بالإكثار من الشرب. لكنها كانت مياه مفعمة بالكلس، لونها غير رائق، وسببت لنا الإسهال الأمراض وأحياناً وجعاً في الكلى.

الحمام

كنا نستطيع الاغتسال داخل المهجع، لكن هذا كان صعباً على الكثيرين بسبب البرودة الشديدة للمياه. من المعروف أن صيدنايا منطقة ثلجية، ويقع السجن على مرتفع فيها تحيطه الجبال التي قد لا يذوب الثلج عن بعضها حتى صيفاً. وهو ما كان يسبب انقطاع المياه حين تتجمد في التمديدات والأنابيب. حافظت على الاستحمام رغم أنه كان أصعب من حفلة الضرب، وذلك بسبب الجرب الذي انتشر.

ولكن كانت توجد حمامات مياه ساخنة في السجن! نعم. لكننا كنا نتمنى ألا يأتي موعد الحمام أبداً. كان الجناح يتكون من تسعة مهاجع مأهولة أما العاشر فحوّلوه إلى حمامات.

أتمنى أن أستطيع تصوير الطريقة التي كنا نستحم بها. يأمروننا بالتعري ثم يُخرجوننا المهجع تلو الآخر بدءاً من المهجع الأول. يخرج أفراد المهجع بطريقة القطار التي وصفتها في "الاستقبال"، يمسك كل منهم بخصر الذي أمامه ويضع رأسه على مؤخرته كي لا يرى شيئاً ولا أحداً. أثناء سير القطار يرافقه سبعة إلى عشرة عساكر بضرب لا يتوقف. من يتعثر ويقع كانوا يضربونه وربما يجهزون عليه ويرمونه في المهجع، أما طويلو الأعمار فيصلون إلى الحمامات أخيراً.

غرف الحمام سبعة أو ثمانية. يدخل كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة تحت الدوش الواحد الذي يقذف ماء فاتراً هو وسيلة الاستحمام الوحيدة. كنا نتدافع للاستحواذ على المركز والوقوف تحت مصب المياه الصغير والبطيء، كي نشرب شيئاً ساخناً ولتوقي الجرب وتنظيف الجلد ما أمكن. ولك أن تتخيل حصة الواحد من الماء طالما أن مدة الحمام المقررة هي عشر ثوان فقط والسجان يعد:

"واحد... اثنين... ثلاثة... أربعة... يلا يا عرصة! خمسة... ستة... سبعة... ثمانية... يلا يا عرصة!!... تسعة... عشرة!!".

عندما يلفظ الرقم الأخير كان علينا أن نكون خرجنا جميعاً، المهجع كله أو من تبقى منه، وأخذنا وضعية القطار للعودة!! من يتأخر للحظة يتلقى من الضرب ما يدمّيه أو يكسره، وقد يقتله.

سبق أن قلت إنني كنت في المهجع السابع. كان هذا يعني أن ستة مهاجع تكون قد "استحمت" قبلنا وأن الأرض تكون مبتلة، مما يزيد من احتمال أن ينزلق أحدنا ويقع. وفي هذه الحالة يصبّ عليه غضب السجان حتى يغمى عليه أو يموت. ولذلك كنا ندعو الله ألا نخرج إلى الحمام.

محمد الثالث

كان اسمه محمد أيضاً، وهو ذو أصل تركماني من حلب. كان عنصراً في الجيش التابع للنظام. وكان معه شاب آخر من الجيش كنا نلقبه أبو إسكندر، كان لا يداوم على قطعته مقابل مبلغ يدفع لقائده، وهو ما يطلق عليه وصف "مفيِّش". كان محمد وثلاثة من زملائه ينامون عند رفيقهم أبو إسكندر حين يحصلون على إجازة بسبب صعوبة السفر. في أحد الأيام أودت وشاية بأبو إسكندر، وتطور التحقيق معه من مجرد التهرّب من الخدمة إلى الاتهام بالتعامل مع "المسلحين". وتحت التعذيب اعترف، ولما طلبوا منه أسماء شركائه في التآمر على الدولة رمى التهمة على زملائه الأربعة فقبض عليهم جميعاً وصاروا معنا.

قال لي محمد: "كنا نقاتل مع الجيش على خط الجبهة وبيننا وبين أعدائنا خمسون متراً فقط. كنا في خيمة وراء الدشم حين ألقوا القبض علينا. كيف هذا؟! من هؤلاء الذين نطلق النار عليهم إذاً؟ كيف نتعامل معهم؟ طيب ورفاقنا الذين قتلوا هنا؟".

حين خرجت من السجن كان محمد ما يزال فيه، ولا أعلم مصيره بعد ذلك. أما أبو إسكندر فقد شهدت وفاته بسبب الهزال والمرض.

طبيب السجن

يأتي العناصر ومعهم طبيب أحياناً. نكون في الوضعية جاثياً ووجوهنا إلى الجدار. يأمروننا بتكرار الوقوف والجثو والقفز والهرولة في المكان، وأثناء ذلك يراقب الطبيب من يعجز عن الحركة أو يؤديها ببطء فيناديه. يسأله الطبيب عن اسمه، ومهما كان الجواب يضربه بضع ضربات ويكتب له على بطن زنده رقماً ويقول: "أنت اسمك مو فلان! اسمك 11833 (مثلاً). إياك أن تنساه"، ثم يأمره بالعودة إلى الصف. أذكر هذا الرقم لأنه كان رقمي حين مرضت.

في اليوم الثاني أو الثالث، عندما سيمشي "جنزير" إلى المشفى الذي يرتبط به السجن، وهو مشفى تشرين العسكري؛ يصيح السجان بالرقم. حين يجيب المريض "حاضر سيدي" كالمعتاد، يدخل السجان إلى المهجع وينهال عليه ضرباً حتى يميته ويتركه في مكانه أو يقوده إلى المشفى مدمىً!

هل قلتُ "مشفى"؟ كان مشفى تشرين العسكري فوبيا، مجازر جماعية، هولوكوست، مسكن موتى. في الحقيقة أعجز عن وصفه. كان سجن صيدنايا لكن بأسلوب آخر. لم يذهب أحد من مهجعنا إلى المشفى وعاد!

ورغم ذلك قررت الذهاب إليه! ربما مللت من المهجع بعد أن مات فيه من كانوا عزيزين عليّ واقتيد آخرون قريبون إلى قلبي إلى مكان مجهول، لا أذكر بالضبط.

كنت رياضياً نسبياً، كما قلت، لكنني قررت أن أبطئ حركتي لينتبه إليّ الطبيب، وبالفعل ناداني. كتب على يدي ثم سألني عن اسمي فقرأت الرقم المسجّل، ولما فعلت ذلك سرّ مني.

إلى مشفى تشرين العسكري

في اليوم التالي نودي على رقمي وخرجت. يجمعون المرضى من كل المهاجع في غرفة انتظار واحدة. بعضهم كان يحتضر وبعضهم يتنفس بصعوبة بالغة، أما من يعجز عن المشي فيشحطونه على الدرج وهم يضربونه. هناك

لاحظت أن لهجة أحد المرضى تشبه لهجتي. تعرّفت عليه فاكتشفت أنه من قرية لصيقة لقريتي وأخذنا نتكلم.
حين يخرجوننا من غرفة الانتظار إلى السيارة المغلقة (البراد) التي ستحملنا كان العساكر لا يعينون أحداً على الصعود. كانت مهمتنا أن نجرّ بعضنا. كانت أوزاننا خفيفة على كل حال؛ في حدود الثلاثين كيلوغراماً.
يستغرق الطريق إلى مشفى تشرين العسكري بين الثلاث والأربع ساعات. حين وصلنا اكتشفت أنهم لا يُدخلوننا إلى المشفى بل إلى زنزانة خارجه بطول 4 أمتار وعرض مترين ونصف وبزاويتها مرحاض. في هذه المساحة يضعون ما متوسطه 30-25 سجيناً قدموا إلى المشفى. ونحن ندخل الزنزانة كان آخرون يخرجون منها للعودة إلى صيدنايا، وبقي البعض.
تولى أحد السجناء من القدامى صفّنا لكنه أخطأ الترتيب والعد. غضب المساعد وصاح: "مين بيصير شاويش؟" فتبرع ابن منطقتي هذا، لأن زيارته للمشفى لم تكن الأولى وكان يعرف النظام. أخذ يرتبنا بسرعة فأعجب المساعد بذلك وقال له أن يختار مساعداً له فاختارني. وهكذا أصبحت "مساعد شاويش".
لم أكن أعرف ماذا يعني هذا هنا!!! عندما خرج المساعد أتاني ابن منطقتي، ولأسمّه "الخال"، وقال لي إن مهمتنا بالغة الصعوبة! سألته: "خير؟ شو بده يصير؟!" فأجاب إن المساعد سيدخل بعد قليل ويأمر المرضى بالهرولة في المكان والوقوف والجثو، فمن كانت حالته معقولة سيدخل إلى المشفى، أما الضعفاء فستقع علينا مهمة تصفيتهم! صُعقت وسألته: "كيف يعني بدنا نصفيه؟" فأجاب: "يعني بدنا نقتله... نموّته". سألت من جديد: "لك شو عم تحكي يا زلمة؟!" فكرر كلامه وقال إننا إن لم نفعل ذلك فسنُقتل، أما إن فعلناه فسنأكل كثيراً!
اكتشفت أن الشاويش في زنزانة مشفى تشرين العسكري قاتل مأجور. هو سجين كالآخرين لكنه مستعد أن يقتلهم كي يأكل طعاماً جيداً يُقدَّم هنا بكمية وفيرة.
للتخلص من هذا المأزق اقترحت على الشاويش تغذية المرضى الموجودين وتمرينهم في الوقت القصير جداً المتاح كي لا يبقى بينهم ضعفاء. كان الشاويش ومساعده اللذين قبلنا قد ادخرا كمية مهولة من الطعام بالنسبة إلينا؛ حوالي 40 حبة بطاطا ونصف كيلو زيتون وأشياء أخرى. قسمنا الكمية بيننا، نحن الخمسة وعشرين، فكانت الوجبة تساوي ما يُقدَّم في صيدنايا لأسبوع أو لأيام. بعد الطعام شرحت لهم الوضع بصراحة كما أبلغني به الخال وقلت لهم إن عليهم أن يتحركوا.
كنت قد عرفت من الشاويش السيناريو القادم. في المساء يأتي المساعد الذي سيصحبنا إلى باب المشفى سائراً بنا الطريق، وطوله 150 إلى 200، وهو مفروش ببحص أبيض كبير. ولأن السجناء حفاة سيقع بعضهم ويعجز عن المشي فيضطر العساكر إلى شحطه أو سنده. وتوفيراً لهذا "العناء" كان المساعد يأمر المرضى بأداء بعض الحركات في الزنزانة استباقياً، فمن توقع أنه سيعجز عن المشي يشير إلى الشاويش بشحطه جانباً ثم يأمره: "اشتغل شغلك"!!
كانت طريقة التصفية في زنزانة مشفى تشرين العسكري هي أن يُلقى المريض على ظهره ويمسك واحد يديه وآخر قدميه، ثم يأتي الشاويش ومعه لفحة قماشية وعصا قصيرة، متروكين لهذا الغرض. يضع العصا على رقبة المريض ويلف الاثنتين، الرقبة والعصا، باللفحة. ثم يبرم العصا دورات عديدة واللفحة تشتد على الرقبة حتى يختنق المريض ويموت. بهذه الطريقة يقتل السجين زملاءه، أربعة أو خمسة في اليوم.
لأجل ألا يضطر الشاويش إلى قتل أحد ذلك اليوم، وأقول "يضطر" لا "نضطر" لأنه من المستحيل أن أقتل، لجأنا إلى الآلية التي وصفتها. وعندما أتى المساعد استغرب. اصطحب أول دفعة منا ثم عاد لأخذ الثانية، دون أن يأمرنا بتصفية أحد.

في صباح اليوم التالي أُخرج الشاويش من المشفى وأُعيد إلى السجن مع "جنزير الصباح". وهكذا أصبحت شاويش الزنزانة. أتوا بالفطور وكان كيساً كبيراً من الزيتون يزن خمسة كيلوغرامات وربما أكثر. لم يكن هناك داع لتقسيمه. وضعته وسط الزنزانة ليأكل كل واحد قدر ما يشاء ورغم ذلك لم ينته. وعند الغداء كانت حصة الواحد من البرغل تساوي خمسة أضعاف حصته في صيدنايا، أي أنها تشعر بالشبع قليلاً.
لأعترف هنا أنني خصصت نفسي بحصتين، إذ كان على شاويش الزنزانة أن يبقى ساهراً ليجده المساعد يقظاً في أي وقت، ولهذا كان الأمر يحتاج إلى شخصين، شاويش ومساعده. لم يكن عندي مساعد فاحتفظت بكمية قليلة من الطعام لتعينني على السهر. في المساء جاء شاب صغير يشكو من الجوع فقسمت هذه الحصة بيني وبينه نصفين. وبعد قليل جاء آخر فقسمت النصف الباقي نصفين. ثم أعلنت أنني مضطر إلى ما تبقى ليعينني على السهر.
تلك المرة الوحيدة التي عيّنت فيها شاويشاً، لساعات فقط، وفي الصباح التالي أذيع اسمي (رقمي) للعودة. كنت أظن أنهم سيرجعون بي إلى مهجعي لكنهم اقتادوني إلى ما يسمونه "مهاجع العزل"! وما هذه؟! هنا سيصبح سجني مضاعفاً.

في مهجع العزل

أدخلوني إلى مهجع لا أعرفه فوجدت من سمّيته "الخال" قبلي. سألته لماذا نحن هنا فأجاب إن نتيجة فحص لعابنا في المشفى بيّنت إصابتنا بالسل فحولونا إلى مهجع العزل الخاص بهذا المرض. هنا يعطون السجين بطانية واحدة، وجرت العادة أن يتشارك اثنان فيمدا بطانية على الأرض ويتغطيان بأخرى، وهو ما فعلناه أنا والخال، وصرنا نأكل سوياً. لكن ما هي إلا يومان حتى عجز عن تناول الطعام. صار يعطيني حصته فأرفضها وأحاول إجباره على تناولها. في اليوم الثالث أبدل فطوره والغداء الذي لم يأت بعد، بالشاي مع أحد الشباب. عمل فتة من الخبز المنقوع بالشاي وتناولها كلها. سررت لذلك جداً. في المساء تبادلنا حديثاً طويلاً عن قريتينا المتجاورتين وتخيلنا كيف سنزور بعضنا بعد الإفراج عنا حتى غلبنا النوم. في الصباح أخذت أوقظه فلم يرد عليّ. قفزت من مكاني وكشفت البطانية فإذا هو ميت.
لم أعرفه كثيراً لكنني كنت قد ارتحت إليه بسبب طيبته ولهجته القريبة، عدا عن أن الشعور أنه مات في الليل وأنني كنت نائماً بجوار جثة كان إحساساً مرعباً. بالإضافة إلى أنه مات بعد ثلاث سنوات قضاها في السجن. كان هذا يخيفني أيضاً فكنت أدعو الله ألا يطيل مدة سجني إلا إذا كانت ستنتهي بخروجي سالماً. كانت فكرة أن يموت المرء بعد معاناة كل هذا لسنوات فكرة صعبة جداً.
مات الخال إذاً... رحمه الله... "ربّعناه" وفق الطريقة التي شرحتها سابقاً وأخرجوه. لا أدري أين يذهبون بالجثث. ظننت أن الضرب هنا سيخف لأننا مرضى، لكن ما أثار استغرابي أنه كان أكثر. لا أدري لماذا. واعتقدت أن كمية الطعام ربما تكون أكبر للعناية بنا لكنه صار يقل إلى درجة مخيفة! وصل الأمر إلى درجة أن يتركونا ستة أيام دون طعام ثم يحضروا للواحد ربع رغيف وزيتونة!! كانوا يزودوننا بالعلاج اللازم ولكن كيف؟ كان على الواحد منا أن يتناول ثلاث حبات في اليوم من الدواء، لكنهم كانوا يحضرون له حبة كل يومين.
أحسست أنني بدأت السجن من جديد. كان معظم الناس هنا ذئاباً أنانية مفردة رغم مرور أشهر على بعضهم في مهجع العزل، لكن ظروف المجاعة كانت تدفع الواحد إلى تمني موت رفيقه كي يأخذ حصته من الطعام. صرت أحن

إلى مهجعي القديم وما يشبه الصداقة والتآلف الذي كنا فيه، وأراه رحمة بالقياس إلى حيث أنا الآن.
عندما أفكر في سيرة سجني أراها درجات هابطة لأسفل، تدفعني كل واحدة منها إلى النظر إلى الوراء واعتبار المرحلة التي مضت وكأنها جنة! عندما كنت في المهجع السابق لم أكن أتخيل أن هناك ما هو أسوأ من صيدنايا، أما الآن فقد عرفت أن في السجن نفسه مستويات من الشقاء. ولكن الحمد لله أن مهجع العزل سيكون محطتي الأخيرة.

إلى مشفى تشرين مرة أخرى
بعد دخولي هذا المهجع بحوالي شهرين أدخلوا علينا شاباً عائداً من المشفى. أخذنا نحادثه عما جرى معه فقال إنهم أكلوا هناك كمية وافرة من "مفرّكة البطاطا"، وهي البطاطا المطبوخة بالزيت. كان قد مضى علينا يومان دون طعام. وكان حلمي... كان حلمي في السجن قد انحصر في أن آكل مفرّكة بطاطا.
منذ زمن طويل لم أعد أفكر في الخروج. لم أعد أفكر في رؤية أهلي. لم أعد أفكر في التحرر من هذا المكان. هذا جوّي وهؤلاء مجتمعي.
عندما سمعت كلام الشاب، الذي أضاف أن زنزانة المشفى دون شاويش حالياً، قررت أن أذهب إلى هناك. حاول الزملاء ثنيي وذكروني بالقتل الذي قد يحدث ولكنني أصررت. سألني أحدهم عن السبب فقلت إنه "مفرّكة البطاطا"، فأخبرني أنها تقدّم يومي الاثنين والخميس. كنا في يوم الثلاثاء فقررت الذهاب يوم الخميس التالي.
بالطريقة نفسها، جاء الطبيب فتباطأت في الحركة. ناداني ومنحني رقماً. في اليوم اللاحق جمعونا في غرفة الانتظار التي حوت مرضى متفاوتين، بينهم محتضرون ومنهكون. هؤلاء ذاهبون إلى الموت، إلى التصفية، لكنهم لا يعرفون ذلك الآن. صعدنا إلى البراد وساعدناهم على ذلك كما في المرة الماضية. سار البراد. وصلنا إلى المشفى.
كان "جنزيرنا" هذه المرة أربعة عشر مريضاً، بينهم سبعة محتضرين أدخلوهم إلى الزنزانة فوراً، أما نحن الباقين فقد لاحظ عسكري "ابن حلال" لون جلودنا فأجلسنا في الشمس. كانت قد مرّت عليّ مدة سنة وثلاثة أشهر دون أن تمس الشمس جسدي. كنت ألمحها أحياناً دون أن أتعرض لأشعتها. صار كل همي في هذه اللحظة أن تدخل مسام جلدي لأكبر درجة. لو كانت الشمس قريبة وقتها لحضنتها!
كنا سبعة. وبجوار آخرنا على اليمين كيس قمامة شفاف. نكزني الجالس جانبي منبهاً إياي. عندما نظرت إلى الكيس تمنيت لو أن فيه بقايا طعام. لم أتخيل نفسي منكباً على القمامة آكل، لكنني لم أتناول في الأيام الثلاثة الماضية سوى الماء. خططنا، نحن الأقرب إلى الكيس، أن نتحيّن الفرصة عند عدم وجود عساكر فنهبش الكيس ونأكل ما قد نجده فيه، إذ لو رأونا لربما صفونا مباشرة.
حين رأينا الوقت مناسباً سحبنا الكيس وأخذنا ننبشه بسرعة. وجدنا فيه قشور برتقال، ثفل متة، أعقاب سجائر، وأكلنا كل ذلك! كنا نريد أن نشعر بأي طعم مختلف عن الكميات القليلة من البرغل والرز والزيتون في السجن.
وجدت ستة أشرطة صغيرة من بقايا البصل الأخضر! سحبتهم فرآهم زميلي وشدّهم من يدي! قلت: سأعطيك، ولكن اترك لي منهم. تسارعت أيادينا وارتفع حماسنا. تمزق الكيس واندلقت محتوياته مصدرة أصواتاً فأتى العسكري من خلفنا.
أخذ يكفر ويشتمنا لأننا نأكل من القمامة ويتساءل بغضب: "ليش نحن منقّصين عليكن أكل؟!"، ويتوعدنا بالحرمان من الطعام عند العودة!
كان ما تبقى من شرائط البصل الأخضر في يدي. خشيت أن يأمرني برميها فسارعت إلى التهامها. شعرت بطعمها الحدّ يمنحني طاقة هائلة.

أدخل الآخرين إلى الزنزانة وتركنا، نحن نابشي الكيس، في الخارج. أتى بأنبوب تمديدات صحية كبير، ذلك الذي يسميه السجانون "الأخضر الإبراهيمي"، بطول مترين أو ثلاثة، وصار يقفز ويضربنا جميعاً ضربة واحدة بأقصى ما يستطيع. كنا هياكل عظمية متلاصقة وكان الألم شديداً. شعرت أنني أموت. كان أصعب ما تعرضت له من ضرب بعد استقبال صيدنايا.

بعد حوالي خمس عشرة ضربة أمرنا بالدخول إلى الزنزانة بسرعة. كانت حالتنا مأساوية. لماذا نتعرض لكل هذا؟ لأننا أكلنا من كيس قمامة؟!

كنا قد جلسنا في الشمس نحو نصف ساعة، ثم تعرضنا للشتائم والضرب نحو ربع ساعة أو أكثر قليلاً. باختصار، تأخرنا عن دخول الزنزانة ساعة كان شديدو المرض قد صُفّوا خلالها...

اقتادونا إلى المشفى مطأطئي الرؤوس، يضع كل منا يديه على طرفي رأسه كي لا يرى شيئاً. لكنني شعرت أننا نمر إلى جانب بشر فخاطرت باستراق النظر. كنت أريد أن أرى أي شخص طبيعي. عندما لمحت امرأة ترتدي ثوباً أسود ورجلاً بقميص وبنطال شعرت بفرح غامر. حتى لو ضربني الآن لن أنزعج، فقد رأيت شيئاً جديداً، رأيت بشراً.

صوروا لي صدري هذه المرة. وفي اليوم التالي أعادونا إلى السجن. في المهجع سألني رفاقي: "أكلت مفرّكة؟" فأجبت: "لا والله". كانت الوجبة التي قدِّمت لنا في المشفى شحيحة جداً تكاد تقتصر على الخبز ولم آكل شيئاً لليوم الخامس.

عندما وصلنا كان المساعد يهمّ بإدخال وجبة الغداء إلى المهجع. كنت مع أحد الزملاء عائدَين من المشفى وفي منتهى الضعف. بالكاد نجرّ أجسادنا ونوشك أن نتهاوى. قلت لزميلي: ما رأيك أن نطلب من المساعد أن نأكل من الطعام الذي مر أمامنا قبل توزيعه؟ فرفض الفكرة لأننا لن نقوى على تحمّل الضرب الذي قد يحصل نتيجة ذلك، وربما نموت. قلت: فلنمت إذاً!

قلت للمساعد: "يا سيدي ببوس إيدك! يا سيدي كرمال الله" فأجاب ناهراً وهو يصيح: "إيش بدك ولا؟". شرحت له حالتي وصرت أتوسل أن يعطيني أي شيء؛ حبة بطاطا، حفنة برغل؛ قطعة خبز، أي شيء. صرخ في وجهي وشعرت أنه يهم بضربي فقلت: "يا سيدي اقتلني، اضربني، إيش بدك اعمل فيني... بس خليني آكل". قال بعصبية: "هلق بتاكل بالمهجع!". أجبت إننا كنا في المشفى ولن يحسبوا حسابنا بحصة الآن.

أحسست بطاقة هائلة هنا، فقد حققت إنجازاً كبيراً بمجرد أنني تحدثت إلى مساعد! شاركني زميلي في الكلام والتملق لكنه أسكتنا.

دخلنا مع جاطات الطعام إلى مهجعنا. كان زملاؤنا جاثين ووجوههم إلى الجدار. بمجرد دخولنا المهجع سقطنا أرضاً في شبه إغماء. لا يستطيع أحد أن يلتفت إلا بعد أن يخرج المساعد ولا أن يأكل لقمة إلا عند سماع إيعازه: "باشر طعام". لكنه قال هذه المرة: "مهجع أربعة!"، فأجاب الزملاء: "حاضر سيدي" فقال: "الكلبين اللي فوّتتهن هلق بيقعدوا عالجاط بياكلوا ليشبعوا وبعدين بتوزعوا الأكل"!

عندما خرج انقضضنا على الطعام بشراهة بالغة لكن الأيادي امتدت لتمنعنا. بصراحة كان الحق معهم، فنحن جميعاً متساوون في المعاناة من الجوع، ولا يهم ما قاله المساعد، لكنني لم أستطع الابتعاد. غرفت غرفتين من البرغل وهم يسحبونني. التقطت حبة بطاطا ومضغتها بسرعة كي لا يتمكنوا من إخراجها من فمي. توقفت في حلقي فخنقتني. عجزت عن الكلام والتنفس فصرت أشير بيدي للآخرين لينقذوني لكن أحداً منهم لم يساعدني عقوبة لي،

حتى سارع شاب حسن الأخلاق فقدّم لي الماء وصار يخبط على ظهري. وأخيراً... بلعت حبة البطاطا!
لم يكن ينبغي لي أن آكلها. كان ذلك خطأً ولكنك لن تميز الصحيح من الخاطئ هناك. كنت أظن يومها أنني ربما أموت لو انتظرت توزيع الطعام الذي يستغرق نصف ساعة. اعتذرت من زملائي وشرحت ما حصل في المشفى. تدخل بعض الأكبر سناً فشرحوا موقفنا... وسامحنا المهجع.
هل أقول "سامحونا"؟! على أي شيء؟ على أني أكلت حبة بطاطا دون توزيع. تخيل إلى أي درجة صار تفكيرنا محدوداً!

الحرمان من الطعام

خلال الأيام الأربعة القادمة استمر وصول الطعام، بكمية شحيحة طبعاً. وفي اليوم الخامس اختلف اثنان على اختيار بيضة بناء على لون قشرتها، الأبيض أو الأحمر، وعلا صوتاهما فقرروا معاقبة المهجع، وتوقفوا عن تقديم الطعام له خمسة أيام. انهارت قوانا وتوفي البعض. شعرت أيضاً أنني أموت. عجزت عن المشي فصرت أزحف تقريباً حين أتوجه لشرب الماء.
عندما يحرمون مهجعاً من الطعام كانوا يسلكون على الشكل التالي: يحضرون حصة المهجع في الجاطات، يضعونها على بابه دون أن يعرف نزلاؤه إن كانوا سيدخلونها اليوم أم سيحملونها ويعطونها للمهاجع الأخرى كما جرت عادة العقوبات. وهكذا كنا نسمع حصتنا تستقر وراء الباب لبرهة، ثم نشعر أن الآخرين يأكلونها!!
مرة أخرى تشجعنا، أنا وزميل المشفى نفسه، على مخاطبة المساعد! أخذنا نضرب على الباب ونستغيث. صار زملاؤنا يسكتوننا توقياً للضرب، لكن آخرين كانوا من رأينا: فليدخلوا ويقتلونا وينهوا عذابنا الطويل هذا!
جاء المساعد، ودون أن يفتح باب الجناح صار يخاطبنا ليفهم ما يجري. كان شخصاً غير الذي عاقبنا فلم يعرف القصة. أخبره الزملاء أن أحدنا قد اختلف مع آخر وعلا صوته، وكان الرجل قد مات خلال هذه الأيام، وأننا ما زلنا معاقبين بسبب ما فعله. كانت مهمتنا، نحن الأصغر سناً، أن نبكي بصوت عالٍ لنسترحمه. أجاب أخيراً: "تمام... تمام. أنا اليوم بحلّها". حين سمعنا هذه الكلمات صار أملنا معلقاً بانتظار الغد، إذ كان احتجاجنا هذا بعد توزيع الغداء ولا يوجد طعام تالٍ اليوم.
في الغد أدخلوا لنا الفطور، وبعده الغداء، وعدنا إلى حياتنا "الطبيعية".

سورة يس التي أنقذتنا

كنا نقضي يومنا بتبادل الروايات عن حيواتنا قبل السجن وعن آمالنا بعده. وكذلك بالطبع عن الأكل؛ كيف تُطبَخ الوجبة الفلانية وماذا يوضع فيها وكيف يُصنَع الحلو... إلخ. صرت أبحث عن جلسات دينية أو لحفظ القرآن. كنت أصلي جالساً لا بعينيّ، إذ كنت قد يئست من حياتي بعد كل ما جرى.
تحدثت سابقاً عن سورة يس. حفّظني إياها أحدهم في الفرع وقال لي: "يس لما قرئت له". سألته ماذا يعني هذا؟ فقال إنك إذا أردت دعاء الله في أمر فاقرأها على نية أن يجيب الله طلبك أو يبعد عنك الشر. بدوري حفّظتها للكثيرين وصرت أقرأها قبل الخروج للتحقيق وعند أي دعاء أو حاجة.

في صيدنايا يُمنع أن ننام قبل أن يصدروا الإيعاز: "ناموا". كان يفعلون ذلك في أوقات مختلفة؛ الواحدة ليلاً أو العاشرة أو قبل ذلك. مهما يكن الوقت علينا أن ننام، ولو سمعوا أي صوت بعده يكون مصيرنا الضرب.
في أحد الأيام تجاوزت الساعة الواحدة والنصف دون أن نسمع الأمر بالنوم. قلنا إنهم ربما كانوا سكارى ونسوا الإيعاز، أو ربما صدر الأمر ولم ننتبه له، خاصة أننا أخذنا نسمع أصوات تقاذف البطانيات لفرشها من المهجع المجاور. غلبنا النعاس وصرنا ننام في أماكننا بينما الشاويش يتنقل من هذا إلى ذاك ليوقظه، لأن السجانين يتسللون بهدوء أحياناً ويفاجئوننا، فإن وجدونا نائمين يصفّونه لأنه المسؤول. صار يحاول إيقاظنا لكن النعاس غلب الجميع تقريباً. قلنا له إنهم ربما نسونا ولن نستطيع أن نبقى ساهرين حتى الصباح، فأسقط في يده ووافق على مد البطانيات. وبينما أخذ البعض ينام سمعنا أصوات "دولاب" للسجن كله، وهي حفلة الضرب المتتالية لجميع المهاجع. كان هذا هو سبب غياب الإيعاز. بدأ الدولاب من الطابق الأول في الساعة الثانية. قلت سابقاً إن سماع أصوات التعذيب أشد من تلقيه بنفسك. كان صوتاً مرعباً جداً جداً أتمنى لو أنني أستطيع نقله أو وصفه. كأنك تدخل إلى مدينة خاوية فتسمع أصوات الأشباح وسط الرياح والعواصف، بل أشد من ذلك بكثير.
كنت جالساً مع شابين هما "جاريَّ" في وقفة الجاثياً، أحدهما إلى يميني والآخر إلى يساري. قلت لهما: فلنقرأ سورة يس على نية ألا يدخلوا علينا. قالا إن ذلك مستحيل فالدولاب يطال كل السجن وسيأتي دورنا مهما فعلنا. شجّعتهما بالقول الرائج: "أنت أكرم من رب العالمين؟". كنت خائفاً مثلهما وربما أكثر، ولكن هذا ما كان بوسعي فعله! بدأنا بقراءة السورة بسرعة شديدة حتى أنني لم أعِ ما أقرأ منها، ولا أين وصلت. صرت أتعثر فيها فأعاود قراءتها منذ البداية، وهكذا قرأتها ثلاث مرات مضطربة.
أقسم بالله إنهم عندما دخلوا جناحنا ضربوا المهاجع الثلاثة التي قبلنا، وتجاوزوا الرابع، الذي كنا فيه، إلى الخامس، دون أي مبرر أو سبب سوى القرآن.
إثر ذلك غلبني بكاء لم أعرف مثله طيلة مدة سجني. عندما كنت أقرأ السورة كنت ألمح الأبواط العسكرية تروح وتجيء من أسفل الباب وكأنه لا يوجد مهجع هنا، لم يفتحوا الشرّاقة ولم يذكروا المهجع الرابع مجرد ذكر! شعرت أن معجزة قد حصلت، شعرت وكأنني خرجت من السجن، فقلت: يا رب، كما مننت علينا بالاستجابة اليوم، أخرجنا من هنا.

في المشفى لآخر مرة

بعد مدة، ولا أدري لماذا للمرة الثالثة، قررت الذهاب إلى مشفى تشرين العسكري! كان الزملاء ينصحونني أن الذهاب إلى المشفى ليس لعبة! كنت أعلم ذلك ولكن نجاتي من المرّتين السابقتين شجّعتني. ربما ذهبت لآكل "مفرّكة البطاطا" التي لم أحظ بها في المشوار السابق، لم أعد أذكر.
جرت الأمور على المنوال نفسه حتى صعدنا إلى البراد ومشى. تعرّفت إلى بعض من حولي فاكتشفت أنهم قادمون مما أسموه "الجناح الملكي"! فهمت أن هذا الجناح مخصص كي تزوره الهيئات الدولية إذا اضطر النظام للسماح لها بدخول السجن. يوضع فيه من يحظون بواسطات قوية، ويشبه السجون العادية، فيتوافر فيه الطعام والشراب والرياضة، وتكون أجساد نزلائه طبيعية.
بين الذين كانوا معنا في البراد من هذا الجناح رأيت شاباً كنت تعرفت إليه في أحد الأفرع وظننت وقتها أننا صرنا

أصدقاء، وتعرّفت إلى زميل له آخر أحسست أنه كرهني بعد بضع كلمات. وعندما وصلنا صار يتبادل الكلام والمزاح مع المساعدين بطلاقة، وأصبح شاويشاً، بل صاروا كلهم "شاويشية"!

بوجودهم صارت كمية الطعام التي تصل إلى زنزانة المشفى كبيرة غير أننا لم نر منها شيئاً. قبل إدخال الأكل كانوا يأمروننا أن نلتفت إلى الجدار ثم يجلسون، كانوا خمسة أو ستة، وينكبون على الطعام بشراهة حتى ينتهي! أظن أنه كان طعاماً طيباً، ربما "مفرّكة بطاطا"!

أحياناً كانت الوجبة تتضمن زيتوناً أو بطاطا مسلوقة، مما ملوا من تناوله في السجن، فيعطوننا نصفه ويحتفظون بالباقي. كنت دون طعام لثلاثة أيام قبل مجيئي إلى المشفى حتى شعرت أن معدتي تكاد تقفز من جسدي ونحن نسمع أصوات أفواههم تمضغ الطعام. طلبت من الذي كنت أظن أنه صاحبي منهم، واسمه أبو حيدر على ما أذكر، لقمة واحدة... واحدة فقط، فأمرني بالوقوف. ظننت أنه سيأخذني ليطعمني فوقفت. كان الذي كرهني ينظر إلينا ليرى ماذا سيفعل صاحبي الذي فوجئت بأنه أمسكني من رقبتي ورفعني وهو يقول بلهجة علوية مصطنعة: "بدك أكل؟!!".

كانت هذه آخر جملة سمعتها قبل أن أفقد الوعي وأسقط على الأرض. لم أدر ما حدث بعد ذلك، لكن من كانوا معنا من المرضى رووا ما سأنقله الآن.

اجتمع الستة عليّ. صار بعضهم يضربني وآخرون يقفزون على جسدي. كان وزن الواحد منهم سبعين أو ثمانين كيلوغراماً. ثم صاروا يحملوني ويخبطونني بالأرض. استمر هذا ربع ساعة توقعوا بعدها أنني انتهيت فوضعوني مع الموتى. كانت الجثث توضع فوق بعضها فجاء نصيبي فوق جثتين، ثم وضعوا عليّ اثنتين أخريين لمريضين صفّوهما بعدي. بعد حوالي نصف ساعة أخذت أصحو. سرت قشعريرة مؤلمة في جسدي منذ أصابع قدميّ.

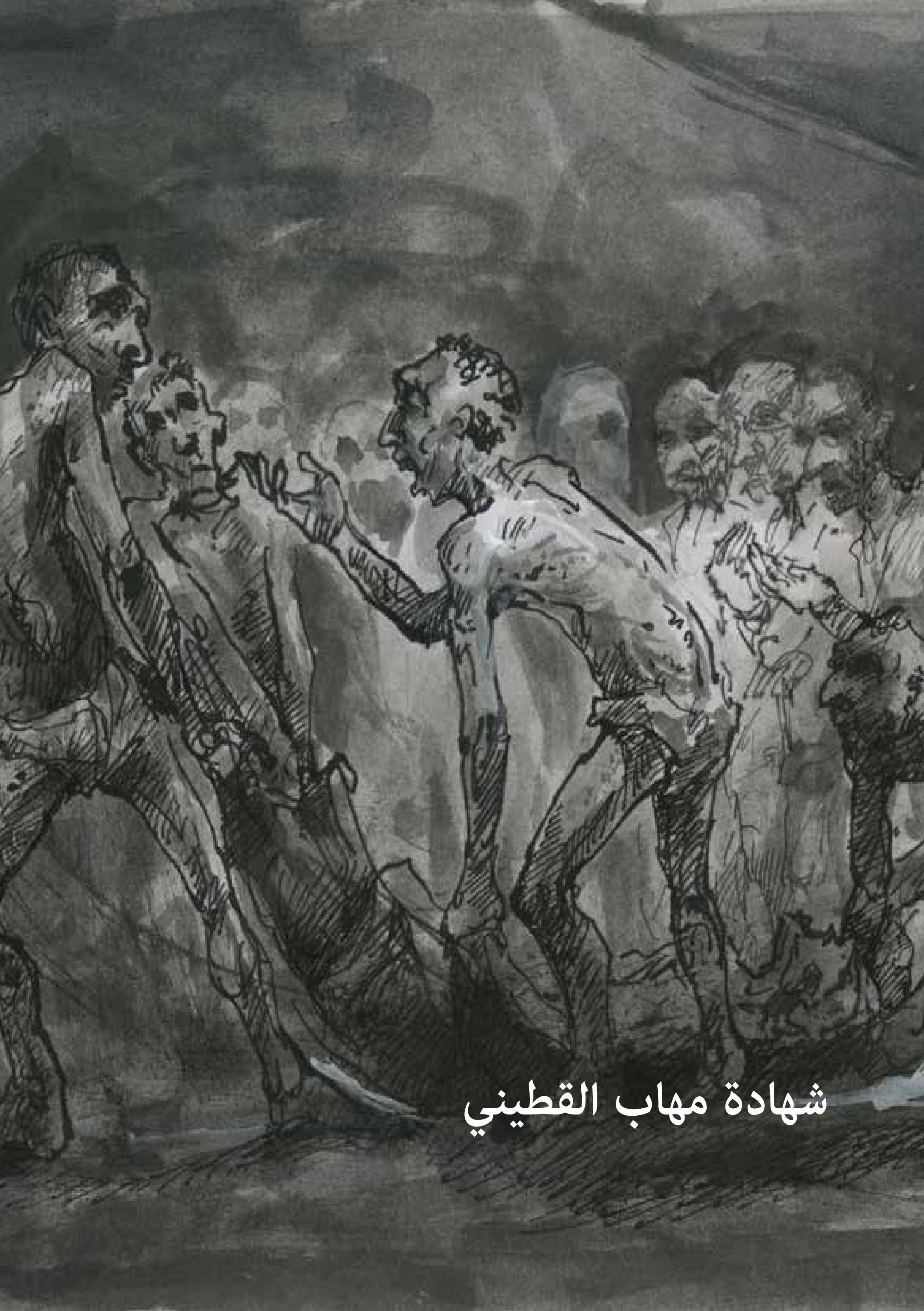
في ما بعد سأحكي لأحد الأطباء فيشرح لي أن قلبي توقف ثم عاد إلى الحياة وبدأ بضخ الدم مجدداً. أظن أن هذا صحيح، لأنني صرت أشعر بأعضائي بالتدريج كلما ارتفعت القشعريرة. تحركت قليلاً فوقعت الجثتان من فوقي. صرت أصيح بشكل مهول بصوت لا أدري من أين أتى. أظن أن المشفى كله سمعني يومها. شعر الشاويشية الشبيحة بالخوف فهرعوا إليّ ثانية، يضربونني على رأسي وبطني وكليتيّ، على كل مكان، وأنا لا أتوقف عن الصراخ. صار أحدهم يبكي ويقول: "مشان الله سكّتوه!" وهم مستمرون بضربي. كنت عارياً أو بالسروال الداخلي القصير، وكنت قد تبولت وتبرزت لا إرادياً.

كانت القشعريرة قد ارتفعت من القدم إلى الساق إلى الفخذ، وصرت أشعر أنني رِجلان فقط، إذ لم أكن قد استعدت الإحساس بوسطي ونصفي الأعلى بعد. عندما وصل جريان الدم إلى قلبي شعرت به ينبض بألم شديد. لم أكن قد استعدت رأسي ويديّ كذلك. عندما اكتملت الدورة ووصلت القشعريرة إلى رأسي انتفضت وفتحت عينيّ. واجهتني قدم تهم بضربي لكنها نزلت بسرعة دون أن تفعل. ابتعدوا عني لأنني عدت من الموت وخافوا بشدة. ارتجفت وتوقفت عن الصراخ.

سمعنا صوت باب الزنزانة. قلت إن صوتي لا بد أنه وصل إلى المشفى، بل ربما إلى نصف دمشق! أثناء فتح الباب عاد إليّ الخوف وخلال ثانية فكرت. كانت فضلاتي قد لوثت الأرض وخشيت أن يسأل المساعد عمن تسبب فيها ويخبره هؤلاء فيضربني أو يقتلني. انحنيت لأجمعها وأرميها في المرحاض ثم أغسل يديّ وأعود ثانية.

فُتح باب الزنزانة. أخذت الوضعية جاثياً وأنا خارج من المرحاض. دخل طبيب وسأل عمّن كان يصرخ فأبلغه الشاويشية أنه أحد الذين ماتوا. كان يمنع قتل المرضى، فهو طبيب في النهاية، لكن المساعدين والعساكر هم من

ابتدع نظام التصفية كي لا يبذلوا جهداً في جرّ المحتضرين والضعفاء إلى المشفى.
أوعز الطبيب لنا: "واقفاً" فاستجبنا. ثم أمرنا أن نلتفت إليه. لم يصدّق كلام الشاويشية وأراد معرفة من الذي كان يصيح. استدرنا فأمر: "راسك بالأرض!". أطرقنا. يُمنع أن نرى الطبيب أيضاً. نظر إلينا ثم قال لي: "تعا لعندي". لم أرد فكرر: "أنت... آخر واحد عاليمين... تعا لعندي"، فأجبت: "أمرك سيدي". ذهبت إليه فقال: "ارفع راسك لفوق". قلت: "سيدي... ممنوع"، فقال: "أنا عم قلك ارفع راسك... وشوفني معليش". رفعت رأسي ورأيته. كان شاباً في حوالي السابعة والعشرين بلحية شقراء خفيفة. سألني: "مين عم يضربك؟" فأجبت: "ما حدا سيدي". كرر سؤالي مراراً ولكنني خفت فلم أبح بشيء. سألني عن اسمي ومنطقتي وتهمتي وأخذ يحادثني ثم سألني: "جوعان؟". أحسست أنه تعاطف معي فأجبته نعم، وقلت إنني لم آكل منذ أربعة أيام. قال: "ما عم يطعموكن هدول الشاويشية الكلاب؟". خفت ثانية وخشيت أنه يستدرجني فأجبت: "والله يا سيدي... طعمونا... بس أنا جوعان كتير". أمر العسكري أن يذهب فيحضر ما يجده عندهم من خبز فعاد بكمية كبيرة وضعها على طاولة خارج الزنزانة. تحرك أحد الشاويشية لإدخالها فنهره وأمرني أنا أن أفعل. عندما أدخلت الخبز قال لي أن آخذ رغيفاً لي في البداية ثم أقسم الباقي بالتساوي وتكون لي فيه حصة كالآخرين. أجبت: "أمرك سيدي".
بمجرد أن خرج الطبيب انقض الشاويشية الشبيحة عليّ وانتزعوا مني الخبز وأوعزوا لي بالعودة إلى مكاني. كان الخبز يكفي لإعطاء كل سجين رغيفاً كاملاً لو وُزِّع بالتساوي، لكنهم استأثروا به وأعطوا كلاً منا ربع رغيف. أما أنا فأعطوني نصف رغيف لأني لم أشِ بهم. ثم نظر إليّ أبو حيدر وأعطاني ربعاً آخر. أكلت وقتها ثلاثة أرباع رغيف، وهو ما لم يحصل لي خلال كل مدة سجني في صيدنايا!!



شهادة مهاب القطيني

اسمي مهاب صلاح الدين القطيني. اعتقلت في 3 كانون الثاني 2017 في فرع الأمن العسكري بحلب (290). بقيت في هذا الفرع مدة 33 يوماً. كانت أعداد المعتقلين فيه هائلة، وكان التعذيب يُمارس بشتى أنواعه كالضرب والشبح. في 5 شباط حوّلوني إلى الفرع 248 بدمشق، وهو فرع التحقيق التابع لشعبة المخابرات العسكرية. هناك كان الوضع أفضل بقليل من حلب من ناحية الازدحام، وكان التعذيب أخف. كانوا قد وضعوا كاميرات في المهاجع وساد نوع من الانضباط فلم يعد السجناء يموتون كما في السابق. أما أثناء التحقيق فيتعرض السجين لشتى أنواع التعذيب؛ كالشبح واقفاً، حين تبقى على قدميك لمدة 48 أو 72 ساعة، حسبما يقرر المحقق، وهناك الشبح المعروف وهو التعليق لمدة ساعة، والضرب بالأنبوب الشهير باسم "الأخضر الإبراهيمي". كان الطعام سيئاً جداً وقليلاً. كانت المدة المتعارف عليها للتحقيق 60 يوماً، تمدد إلى 90 إن حصلت تطورات فيه. لكنني قضيت أكثر من ذلك وقتها لأنهم احتفظوا بجميع المعتقلين المتحدرين من مناطق ساخنة لاستخدامهم في عملية تبادل أسرى مزمعة.

تم تحويلي إلى سجن صيدنايا بتاريخ 20 أيلول 2018. هناك بدأ الاستقبال بالضرب كما هو معروف بالنسبة لنزلاء المبنى الأحمر بالتحديد، ثم أودعوني في إحدى المنفردات حتى تاريخ 12 تشرين الثاني من العام نفسه.

كان الوضع سيئاً جداً، فالأكل قليل لا تتجاوز حصة الواحد منه رغيف خبز يومياً. يتوزع الطعام على ثلاث وجبات؛ في الصباح حبتا زيتون وشاي يرميه السجان في أرض المنفردة، أما الغداء فمن الرز أو البرغل مع سائل من شوربة العدس أو مرقة المعكرونة، لم يكن مقبولاً فكنا نرميه عادة. وكان العشاء بطاطا مسلوقة. لم يكن باب المنفردة يُفتح إلا مرتين في اليوم؛ الأولى لإدخال طعام الفطور، والثانية لطعام الغداء والعشاء سوياً ويوزعونه وقت الغداء. يستطيع السجان ضربنا متى شاء ولأي سبب، كان يستمتع بذلك، عدا الشتائم والإهانات. وكنا نسمع أصوات الضرب من المهاجع التي لم أحوَّل إليها، بل قضيت هذين الشهرين تقريباً في المنفردة التي تشاركت فيها مع شخصين وكانت مساحتها ثلاثة أمتار في ثلاثة، وفيها مرحاض. لم يكن بمقدورنا فعل شيء سوى الأكل والنوم، لكن النوم في النهار كان ممنوعاً فكنا نتناوب عليه بسبب المساحة وكي ينتبه أحدنا إلى مجيء السجان فيوقظ النائم.

كان التعذيب يشمل الضرب والشبح كذلك. كنا نسمع أصوات المشبوحين ولكن لا نعرف أين هم، أما الضرب فحين يخطر للسجان فإنه يُخرج أي شخص من إحدى المنفردات ويأخذ بضربه كي يتسلى ليلاً. في المنفردة التي كنت فيها لم يخرج أحد منا للضرب ولا للشبح.

أفرج عن أحد رفيقيّ قبلي، وخرجت وتركت الثالث.

بعد صيدنايا حولوني إلى فرع الشرطة العسكرية لمدة خمسة أيام، ثم إلى سجن عدرا لستة عشر يوماً، ثم أُفرج عني.

شهادة أم علي



بدأت قصتنا عندما قامت الثورة في سورية. كنا نقطن وقتها في الريف الشمالي لحلب، وبعدما بدأ قصف النظام على هذه المناطق اضطررنا للنزوح إلى مدينة حلب، زوجي وأولادي وأنا، واستأجرنا منزلاً.
لزوجي ابن عم مخبر، بينه وبين عائلة زوجي مشاكل قديمة، ولما رأى أننا نزحنا إلى مناطق النظام جاءته الفرصة فكتب في حق زوجي تقريراً أمنياً يتهمه بأنه "إرهابي" فاعتقلوه مرتين.
كان الوقت عصراً حين أتوا في الأولى. كنت وزوجي ووالدته السبعينية في المنزل. طرقوا الباب بقوة. سألنا: "من؟" فأجابوا: "الأمن... افتحوا". فتحنا، إذ لم نكن نملك خياراً آخر. كانوا عشرين أو أكثر. بادرونا بالشتائم المقذعة والإهانات فوراً. فتشوا المنزل وكسروا ما شاءوا من أثاثه. أحسست أنهم ليسوا بشراً، ليست لديهم رحمة. صارت حماتي ترجوهم ألا يعتقلوه فيجيبونها: "يا أمي ما عرفتي تربّي". كانوا قد احتجزوه في الغرفة الداخلية وكنا نسمع الشتائم التي يوجهونها إليه. وبعدها اقتادوه حافياً فهرعت وراءهم بحذائه الذي سمحوا لي أن أعطيه إياه.
سارعت إلى اللحاق بهم فعرفت أنهم أخذوه إلى الأمن الجنائي. كانت الأمور سهلة في المرة الأولى. وكّلت له محامياً و"اشتغلنا". دفعت بين الثلاثمائة والأربعمائة ألف ليرة فتمكنا من إطلاق سراحه بعد شهرين وعشرة أيام. طمأننا المحامي إلى أن أموره سليمة وأن متاعبنا انتهت، غير أن زوجي كان قلقاً فاقترح عليّ تغيير المنزل، وهكذا فعلنا.
خرج في حالة مزرية؛ كان وزنه قد نقص حوالي 20 كيلوغراماً، ولم يغادره الخوف حتى اعتقلوه للمرة الثانية بعد حوالي شهرين. كان ابن عمه نفسه قد كتب تقريراً أشد ولهجة أشرس. جاءتنا قوة مداهمة كبيرة جداً. كنت أضع الغداء عندما وصلوا. طرقوا على الباب بشكل مرعب ثم اقتحموا المنزل وانتشروا فيه. يصعب أن أصف المشهد. الصغار يبكون، حماتي تبكي وتهوي على أقدامهم تتوسل، وأنا كذلك، دون فائدة.
اقتادوا زوجي إلى إحدى سياراتهم واستمروا في التفتيش. كانت في البيت خزانة مقفلة لصاحبة المنزل. التفت قائدهم وقال لي: "هي فيها سلاح"، فقلت: "افتحها سيدي". كسروها ولم يجدوا شيئاً بالطبع. سرقوا كمية من الدخان كانت في المنزل، وكذلك موبايلي، أما موبايل زوجي فأخذوه معه. كان الموقف صعباً. أذكر أن الجيران عندما سمعوا الأصوات غادروا بيوتهم جميعاً. كانت بنايتنا من أربع طوابق، ولم يبق فيها إلا أنا وحماتي وأولادي، الأكبر في العاشرة، وابنتي في السابعة، والأصغر في الخامسة.
قلت لقائدهم: "سيدي بدي ألحقكن" فوافق. كان يكذب عليّ. إذ ريثما ارتديت ملابسي ووضعت الحجاب كانوا قد غادروا. ليست هذه المرة كالأولى. كانوا قد أخذوا موبايلي ولا أستطيع الاتصال بمن يساعدني، وطرقت أبواب الجيران فلم أجد أحداً، فجلست في الشارع وصرت أبكي.
لشهر بعدها ظللت أحاول أن أعرف شيئاً عنه. دفعت الكثير من النقود وتعرضت للاحتيال حتى عرفت أنه في المخابرات الجوية وأن التهم الموجّهة إليه في التقرير كبيرة، كالمشاركة في القتال إلى جانب الثوار للسيطرة على أحد المطارات، وأنه قتل بعض الضباط. لم أستطع أن أصل إليه هذه المرة على الإطلاق. علمت فقط أنه في فرع المخابرات الجوية بحلب، ولما صار الفرع يتعرض لهجوم الثوار وخافت السلطة من سقوطه نقلوا السجناء، ومنهم زوجي، إلى العاصمة بطائرات الهليكوبتر. هذا كل ما استطعت معرفته.
نتعرض، نحن أهالي المعتقلين، للكثير من عمليات النصب من طرف من يزعمون أنهم يستطيعون جلب أخبار عن رجالنا، وذلك لأن عاطفتنا تسبقنا دوماً. مرّت أيام نمنا فيها دون عشاء وأنا أوفّر النقود لأرسلها لمن زعموا أنهم سيعرفون أين زوجي.

بعدما صار في دمشق انقطعت أخباره غير أنني لم أفقد الأمل. كنت قد صرت الأم والأب معاً وكان هذا أمراً صعباً، لكنك تستطيع النجاح في ذلك إذا توكلت على الله وملكت الهدف. كان هدفي أن يدرس أطفالي جيداً وأن يخرج زوجي فيرى أنني اعتنيت بتعليمهم وأخلاقهم كما كنا نتحدث معاً. كنت أتخيل ذلك فأفرح وأشعر بالقوة، وكان من حولي يشجعونني، غير أني كنت وحيدة في كثير من الأوقات. كنت أبكي بعد أن ينام الأولاد، فما ذنبهم؟ كنت أحاول أن أغطّي على غياب الأب ولكن ذلك لم ينجح دائماً. عندما كنت أصحبهم إلى إحدى الحدائق وأرى أباً يلاعب طفله كنت أحزن كثيراً دون أن أبدي ذلك لهم. مرّت عليّ الكثير من لحظات الضعف، وخاصة مع نمو الأولاد. ابني الأكبر في السادسة عشرة الآن، ولم تكن مراهقته سهلة. لو كان الأب موجوداً لاختلف الأمر.

بعد غياب زوجي صار عناصر المخابرات يضايقونني، كانوا يأتون في بعض الصباحات ويطلبون النقود ويخاطبونني بوصف "زوجة الإرهابي". قوّاني الله فلم أفتح الباب لهم، ولكنني اضطررت في النهاية إلى مغادرة هذا المنزل الذي يعرفونه منذ اعتقلوا زوجي منه. كنت امرأة وحيدة في السادسة والعشرين مع حماتي وأطفالي. هربنا ذات ليلة في الثالثة صباحاً وسكنّا مع عائلة كبيرة، نازحة هي الأخرى، من أقارب أمي. وأخيراً تنامت مخاوفي فقررت مغادرة حلب. شعرت يومها أنني "خائنة" وكأنني تخليت عن زوجي!

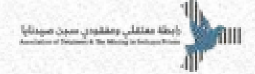
قصة المعتقلين صعبة. كثيراً ما أسأل نفسي: اعتقلوا زوجي نتيجة تقرير، طيب، أليس لديهم ما يسمّى "التحقيق" وعندها سيعرفون كذب هذا التقرير؟ ألا يوجد عندهم ما يسمّى "القضاء"؟ شيء اسمه "عدالة"؟ لكنهم وحوش! كيف يضعون الناس في الأقبية كل هذه السنوات؟ لو علمنا أنه استشهد لترحمنا عليه... دفنّاه، لكن حالة المختفين قسرياً مختلفة. كان الله في عون أمهاتهم وزوجاتهم. نحن دوماً في حيرة؛ هل هم أحياء أم لا. يومياً يراودنا هذا السؤال.

بعد انقطاع ثلاث سنوات وصلني خبر أنه في سجن صيدنايا. صرت أسأل نفسي: هل سيقاوم؟ هل سيتحمّل؟ هل سيصبر؟

سجن صيدنايا

خلال الثورة السورية

شهادات



Designed by Tammam alomar 2019